
الطبعة الثالثة
ضحك مجروح
بلال فضل
دار الشروق
وليد

إلى أجمل وأجدع وأحَنّ وأطيب وأظرف وأحكَم وأجَنّ وأرَقّ
و«أرجَل» سيدتين في الدنيا

أمي البيولوجية

المربية الفاضلة ماجدة السيد

وأمي السيكولوجية

الفنانة الكبيرة عبلة كامل

وفاءً لمحبتهما

التي حمتني من الضياع

وامتنانًا لدعواتهما

التي أنقذتني من الضلال.. حتى الآن

ويا رب دايمًا

فتوى في البوس!

تعودت على الذهاب إلى الحلاق لتخفيف ذقني فور أن يناديني من لا يعرفني قائلًا: «يا شيخ».

قبل يومين نبهني سائق تاكسي إلى تأخري في الذهاب إلى الحلاق، عندما قال لي: «ممكن أسألك سؤال يا شيخنا»، صَعُبَ عَلَيّ أن أكسفه فقلت متقمصا روح شيخ يقطر ماء الوضوء من لحيته: «تفضل يا أخي». كان الأسطى قد انتهى لتوه من تقبيل استفتاح يومه، ورقة بخمسة نفحها له الزبون الذي سبقني في الركوب، «هوه صحيح يا شيخ الواحد لما يبوس الفلوس اللي بتيجي له من شغله.. ده يبقى حرام؟».

الله على السؤال. عشرات الإفيهات تتصارع للخروج الفوري من باطني، لكنها للأسف ستُنهي احترام لقب الشيخ الذي اكتسبته دون أدنى مجهود، مسكت نَفسي بالعافية متمسكًا بقناع الجدية، ظن الأسطى أن صمتي يعني عدم فهم لسؤاله المُلِحّ فعاجلني بمزيد من الإيضاح: «معلهش يا شيخ هو سؤال غريب بس أنا يعني متعود أبوس الرزق لما ييجي لي.. مرة وأنا بابوس حتة بعشرة استفتحت بيها كان راكب معايا زبون شيخ زي سيادتك كده بس خَوِّفني لما

لقيته سرخ فيا اللي بتعمله ده شرك استغفر ربك.. قلت له منش قصدي يا شيخ.. قال لي ده مش عذر ياما ناس بتخرج من الدين خروج حاجة من حاجة.. قال حاجة كده بالنحوي بس ما لقطتهاش عشان ما كنتش لسه عملت الاصطباحة»، قلت له وأنا أتمسك بوقار العلماء: «هل قال لك مروق السهم من الرمية؟»، انبهر الأسطى بشدة لأنني «طلعت عارف حكاية السهم والرمية»، تضاعف تقديره لي على الفور وشعرت في عينيه برضا مَنْ أحسن الاختيار، وطفق يواصل شكواه: «بصراحة يا شيخ لما قال لي على حكاية السهم دي اتخضيت وقلت له ليه كده بس يا شيخ ده احنا موحدين بالله.. بيني وبينك أنا ما اديتوش ودن عشان ما كانش زي سعادتك مربي دقنه جامد.. زي ما يكون سايبها تتانة.. المهم بعدها بكام يوم كنت بابوس عشرة جنيه اداهاني زبون لارج في مشوار الشهادة لله كبيره أربعة جنيه.. كان راكب مطرح سعادتك اللهم صلي على النبي شيخ برضه بس دقنه يمكن أطول من سعادتك وزبيبة الصلاة واكلة نص وشه.. قال لي نفس الحكاية، فبصراحة اتلخبطت جامد، وكنت ناوي أطلع دار الإفتاء اللي في الدراسة دي عشان أسأل رسمي عن الحكاية دي.. بس يمكن ربنا بعتك ليا عشان توفر عليا المشوار.. حضرتك باين عليك من أهل العلم»، قالها مشيرًا إلى الكتب التي أحملها، حمدت الله أنه لا يستطيع من مكانه قراءة عناوين الكتب التي أحملها، كان عنوان أول كتاب منها «كيف تنقص وزنك وفق فصيلة دمك»، الكتاب التالي مباشرة كان رواية اسمها «اكتشاف الشهوة» دلني على قراءتها أحد أصدقائي المارقين، الكتاب الثالث كان عن فن الكوماسترا، وعيب أن تطلب مني مزيدًا من التوضيح.

شحنة الضلال المنبعثة من الكتب جعلتني أفكر للحظات أن أخلع قناع المشيخة وأنهال على أخينا التاكسجي بكلام يسم البدن، بدنه طبعًا، كلام يوجع القلب عن هذه المهزلة المأساوية التي باتت تسود حياة المصريين الذين لم يعودوا يطلبون الفتوى إلا في سفاسف الأمور، فيسألون مثلًا عن حكم شرب الفياجرا بماء زمزم، بينما لا يشغلهم البتة السؤال عن حكم السكوت على الظلم والفساد والتوريث وبيع البلاد بالرخيص، لكن جدية الرجل الشقيان في السؤال وجمال الكتاب الرابع الذي كنت أحمله (كتاب شخصيات غير قلقة في الإسلام للمفكر العراقي الراحل هادي العلوي) شجعاني على أن أتعامل مع سؤال الأسطى بجدية، فأجيبه وأنا أستحضر الفصل الرائع الذي كتبه هادي العلوي عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان الذي يتضح يومًا بعد يوم كم نحن في أمسّ الحاجة إليه.

قلت له: «شوف يا سيدي الحكاية مش مستاهلة مشوار لدار الإفتاء، والله أعلم الثابت شرعًا أن الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، إنت لما بتبوس الفلوس مش بتبوسها بنية التقديس ليها، لأ إنت بتبوسها بنية الشكر لله عز وجل لأنه رزقك بيها، زي ما بتبوس رغيف العيش قبل ما تاكل، أو حتة اللقمة اللي بتلاقيها في الشارع فبتبوسها قبل ما تحطها جنب الحيط»، قاطع الأسطى تدفقي الجاد قائلًا: «الله ينور يا شيخ بس أنا قلت شبه الكلام ده للجدع الشيخ أبو دقن أطول من دقن سعادتك قام قال لي إن حكاية بوس العيش دي برضه حرام.. قلت له مش لما نلاقي العيش الأول يا مولانا.. كَشّر وقال لي إنت هتهزر في أمور العقيدة فاتكبست وسكت وقعدت

يومها كله متنكد لاحسن أكون خرجت من الإسلام خروج البتاعة اللي إنت قلت عليها دي».

نظرت إلى السائق بحزن شديد مقدرًا أن اقتراب مكان نزولي لن يكفي لنقاش طويل سيفضي غالبًا إلى خروجي من التاكسي كخروج الزمالك من الكاس، قلت له: «يا اسطى إنت عمال تسأل الناس كلها عن آرائها، إنت رأيك إيه في الموضوع ده، إنت حاسس إنك لما بتبوس الفلوس اللي ربنا بيرزقك بيها ده حرام، ما تستفتي قلبك يا أخي»، احتار الأسطى للحظات ثم قال لي بضيق: «إنت هتحيرني ليه يا شيخ.. ده أنا اللي باسألك؟ يا أخي جاوبني وريحني».

أشرت له إلى مكان نزولي، وبعد أن توقفت السيارة فتحت الباب وخرجت منها على دفعات، ثم أحكمت غلق الباب وأدخلت رأسي من الشباك، وقلت له: «بص يا اسطى من الآخر الفلوس اللي انت بتسأل على حكم بوسها دي تعتبر فلوس حرام ولا حلال؟»، رد مندفعًا: «حلال طبعًا يا شيخ»، قلت له: «لو حلال مش بس تبوسها.. نام معاها لو عايز». وجريت.

إمّا اعتدلت.. وإمّا اعتزلت

أما لهذا الليل من آخر يا رجل؟

ألن نصحو في يوم من الأيام لنجدك قد قررت أن ترحمنا قليلًا من رؤيتك وأنت على نفس الحال التي نراك بها منذ أطللت علينا قبل ثلاثين عامًا أو يزيد؟

متى تقرر أن تستريح وتريحنا يا رجل؟ ألا تتعب بالله عليك من هذا الكلام الذي تعيد وتزيد فيه وتغني به علينا طيلة هذه السنوات دون أن تكل أو تمل؟

قلناها لك مرارًا وتكرارًا.. كفاية.. لكنها لم تُجدِ يومًا معك وأظنها لن تجدي أبدًا.. فقد قررت فيما يبدو من أول وهلة أن تمضي في طريقك الذي رسمته لنفسك والذي يزينه لك المحيطون بك، الذين يباركون لك كل ما تفعله ويخلعون عليك ألقاب الإمارة، ويصورون لك أن الناس ما زالت تموت في دباديبك وأرانيبك وتعشق كل ما تقوله أيًا كان ما تقوله، ومستعدة لأن تتحملك دائمًا وأبدًا وأنك يمكن أن تبدأ دائمًا من أول وجديد حتى وكل ما حولك ينهار.

عندما ظهرت قبل سنوات طوال استبشرنا بك خيرًا، وظننا أنك ستكون مختلفًا عمن سبقوك.. وأنك ستقدم لنا تجربة جديدة مختلفة متميزة، وها نحن بعد كل هذه السنوات العجاف، نترحم على من سبقوك ونعيد قراءتهم، بل ونعيد من زهقنا تقييم أخطائهم متصالحين ومتسامحين مع بعضها، عندما أطللت علينا وقت أن أطللت تحمس لك الكثيرون وقالوا فيك وعنك كلامًا جميلًا، وتمنى الجميع أن تتعلم من أخطاء الذين سبقوك وتقدم لنا نموذجًا أرقى وأفضل مما قدموه، لكن كل آمالنا فيك أخذت تتبدد بمرور الوقت.. فالذي نصبح فيه معك نبات فيه.. ومع كل تجربة جديدة لك تثبت لنا أنك تتحرك ببطء قبل أن تقوم بأي تغيير.. حتى أنك ظللت طيلة فترة الثمانينيات تشكّل صورة بالكربون عمن سبقوك.. وعندما أطلّت التسعينيات بإيقاعها اللاهث وصورها البراقة وثورتها الإعلامية، توقعنا أن تتغير وأن تتبدل لكنك ظللت تسير نحو التغيير بخطى مرتبكة مرتعشة، وعندما جدّدت وغيرت قلنا ليته ما فعل.

الغريب أنك عندما ظهرت على الساحة كانت الدنيا تشهد رحيل جيل العمالقة الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس، وبدأنا نشهد تباشير عصر التقزم ليس في مصر فقط بل في العالم كله، وقتها كان لديك فرصة ذهبية لكي تكون عملاقًا تملأ المكان الذي شغلته، خاصة وأن الساحة كانت تخلو من أي منافس حقيقي لك، وكان عليك أن تستغل ضعف مواهب منافسيك وقلة إمكانياتهم لكي تظهر قدراتك للناس وتسيطر على مشاعرهم وقلوبهم. لكنك لم تستغل أبدًا هذه الفرصة ولم تملأ أبدًا المكان الذي شغلته وبدأ البساط يُسحب من تحت قدميك شيئًا فشيئًا حتى لم يعد هناك بساط من أساسه، بالكثير

هناك كليم، وأصبح من هم في دور أولادك أكثر قدرة على التأثير على الناس والوصول إليهم.

حتى الآن لا يفهم أحد لماذا أضعت كل فرص الإصلاح، ولماذا رفضت أن تسير في طريق التغيير بحق وحقيق، بدلًا من الالتفاف دائمًا حول الأصوات التي تطالبك بالتغيير والتطوير، كنت كلما أعلنت لنا أنك ستقوم بتغيير فيما تقدمه انتظرناك بلهفة وشغف، ثم وجدناك تقدم نفس اللحن الذي درجت على تقديمه بتوزيع جديد، كأن التوزيع الجديد هو الذي سينسينا تكرار نفس الكلمات التي تقدمها والتي ظلت كما هي لم تتغير ولم تتبدل، نفس العقلية التي تظن بها أن إخفاءك لمعالم الشيب في رأسك سيجعلنا نظن أنك لا تشيخ ولا يؤثر عليك الزمن وأن ظهورك دائمًا لامعًا متأنقًا سيجعلنا ننسى أنك حاضر في حياتنا منذ زمن بعيد تبدلت عليك فيه أجيال وأجيال، وأن خدودك المنتفخة المحمرة ستجعلنا نعتقد أنك ابن امبارح.

قلناها لك مرارًا وتكرارًا: إما اعتدلت وإما اعتزلت.. لكنك لم تعتدل ولم تعتزل.. دون أن تؤمن ولو لمرة بقانون الزمن.. بضرورة الاعتزال.. بخيار التوقف.. بحاجتك البيولوجية إلى الراحة.. أنا آسف أن أختار لك قراراتك أو أحاول أن أمليها عليك.. ليس من حقي ذلك أبدًا.. فربما كنت ترى أنك قادر على العطاء.. لكن ألا يحتاج الأمر يا سيدي إلى أن تتوقف قليلًا لتراجع أوراقك وتحاسب نفسك على ما قدمته طيلة السنوات الماضية، وتنزل إلى الناس دون تزويق أو تزييف لترى هل لا زالت قادرة على تحمل المزيد من بضاعتك المزجاة.. ألست تفعل كل ما تفعله من أجل الناس.. فلماذا

لا تسمع صوت الناس ولو لمرة واحدة.. لماذا لا ترحمنا وتعتقنا لوجه الله ويكفي ما شنفت به آذاننا طيلة السنين الماضية.

لماذا لا تستريح قليلًا لنرتاح نحن قليلًا.. ده لو كنت بتحب حقيقي صحيح.. لو كنت بتحب نفسك وجمهورك.. وإذا كنت يا سيدي لن تعتزل وهذا أمر الله.. فعلى الأقل حاول أن تعتدل.

آه.. نسيت أن أقول إن هذه السطور موجهة إلى المطرب الكبير هاني شاكر بمناسبة ألبومه الغنائي الجديد.

سلاح المقاومة!

كيف نتخلص من الطغاة ونحن نواصل صناعتهم كل يوم؟

كنت داخلًا للتو إلى برج ضخم من أبراج المعادي، متجهًا نحو الأسانسيرات لأبدأ رحلتي إلى حيث يسكن صديق لي في الدور الثاني والثلاثين، على باب المصعد الذي كان مفتوحًا استوقفني شخص تحيط به هالة من اللزوجة: «بلاش ده.. استنى الأسانسير التاني لما ينزل»، لم تمنعني لزوجته من سؤاله ببراءة: «ليه وهو الأسانسير ده عطلان؟»، وبراءتي لم تجعله يكبح جماح اللزوجة التي كانت تواصل التدفق منه حتى كادت تغرق الأرض من حولنا: «لأ يا سيدي شغال.. بس أنا معلقه عشان سعادة الباشا فلان الفلاني عضو مجلس الشعب بيركن عربيته ولازم يطلع في الأسانسير حالًا».

«كده.. طب تعالالي بقه يا حبيبي»، قلتها في سري وقد صهلت بداخلي خيول المواجهة، دفعته بعيدًا بكل ما أوتيت من قوة، ودخلت إلى الأسانسير بإباء وشمم، بينما تشبث هو بالباب بعزم ما فيه وهو ينظر إليَّ باحثًا عن سر استبياعي ومقايسًا لما يجب أن يكون عليه رد فعله، ربما لأنني عريض المنكبين، أو متأبط لشنطة جلدية مريبة

الحجم والمظهر، أو «شاقط» لموبايل ذي طلة، أو لأن ملامحي التي كانت وديعة «إتفكّت» وكستها شراسة شبه وضيعة، أو ربما لاجتماع ذلك كله، قرر اللزج التهدئة وانتهج الخنوع الفوري: «ما يصحش كده بس يا باشا.. هو بس يعني أصل الباشا ما بيحبش حد يركب معاه في الأسانسير».

لم يتوقع أن أتحول على الفور إلى أسد هصور في قلب الأسانسير، باغته رفعي لسبابة التهديد وإبهام الوعيد معًا وأنا أصرخ فيه: «طب عليا الحرام ما انا طالع إلا لما ييجي البيه العضو بتاعك وأشوف ليه مش عايز يركب مع الشعب»، لم يفهم الصورة البلاغية في آخر جملتي فنظر إلى الأسانسير كأنه يبحث عن الشعب، فعدت لأصرخ فيه شارحًا استعارتي المكنية: «أيوه أنا الشعب.. ولازم البيه بتاعك يركب معايا ويبقى مبسوط كمان.. عشان أنا من الشعب اللي ركّبه الكرسي اللي هو فرحان بيه».

أخذ يحلق فيَّ بذهول وهو يلعن اليوم الذي أغضب فيه والدته فدعت عليه بمصيبة مستعجلة بحجمي، قرر أن ينحني للعاصفة، وأغلق باب الأسانسير وهو أقل من فردة حذاء لا يرتديه منتظر الزيدي، ليحرمني من فرصة استكمال مواجهة لم تعد مبررة بعد انسحابه المهين.

دُست على زرار طابقي المنشود وأنا أهتف في فضاء الأسانسير التخيلي بما كنت أنتوي قوله للسيد العضو: «إيه يا سيادة نائب الأمة.. مش عايز تركب ليه مع الأمة.. مش عاجباك ريحة الشعب يا عضو»، توقف الأسانسير فقررت إكمال مواجهتي في حمام صديقي الذي

كنت بحاجة ماسة لدخوله، لكنني اكتشفت أن غضبي جعلني أدوس رقمًا خاطئًا، وقبل أن أصحح الخطأ «اتسحب» الأسانسير إلى الدور الأرضي مجددًا.

انفتح الباب لأجد اللزج منحنيًا لنائب الحزب الوطني الذي تردد اسمه في أكثر من قضية فساد تزكم الأنوف، رمقني النائب بنظرة عدائية عندما وجدني أقف في الأسانسير دون حراك، أما اللزج فقد نظر إليَّ متوجسًا خيفة ثم نظر إلى حارسيّ النائب معتذرًا عن وجودي في الأسانسير والحياة، والنائب تقدمهما إلى داخل الأسانسير وأعطاني ظهره مفضلًا النظر إلى صلعته البهية في المرآة، وداس على رقم الدور السادس والثلاثين، وأنا ما صدقت أن تأتيني ثانية فرصة المواجهة، فعلا صوت صلاح جاهين في وجداني على صوت موتور الأسانسير وهو يحثني على طرقعة كل بالون منفوخ في السترة والبنطلون.

فجأة وقع نظري على السلاحين اللذين يحملهما الذئبان البشريان الحارسان للنائب، لساني الطلق ألجمه على الفور خيال وجوه زوجتي وبناتي وهن باكيات نائحات بعد نشر الأهرام خبرًا في صفحتها الأولى عن «مصرع كاتب مختل عقليًا بعد محاولته قتل نائب وطني»، نسيت صلاح جاهين وتذكرت المهاتما غاندي، وسوس لي الشيطان بأن أكتفي بالحسبنة على النائب، لكنني تفيت على الشيطان في المراية، وصرخت في وجه نفسي الأمارة بالخنوع: «هيهات منا الذلة إن لم نعمل بما قاله أبونا صلاح جاهين ولم نُفَشِّي هذا النائب المنفوخ على الفاضي».

بعزيمة مقاوم محنك انتظرت حتى وصل الأسانسير إلى الدور الثاني والثلاثين، تجاوزت النائب الفاسد وحارسيه الفاتكين، فتحت الباب قليلًا، ثم استدرت ناظرًا إليه وقلت بصوت غامض: «أنا آسف»، مستمتعًا بنظرة عدم الفهم في عينيه وهي تتحول إلى نظرة ذهول بعد أن غزت الرائحة النتنة جنبات الأسانسير الذي خرجت منه منتشيًا بعبقرية المقاومة السلبية التي لا يعاقب عليها القانون. وذلك «أضعف المقاومة».

عمود سبعة راكب!

هل يمكن أن تشتري يومًا جريدة الصباح فتجدها اتخذت لنفسها مانشيتًا عريضًا يقول بالبنط الحياني «من المواطن المصري إلى سيادة الرئيس.. دَلّعني لاطفش».

قد تمتلك صحيفة الجرأة اللازمة لنشر شعار كهذا حافل بالتهديد والوعيد، لكنني أشك أن يكون لدى أحد في شارع الصحافة مثل هذا الخيال البكر ومثل تلك القدرة على التكثيف التي صاغت هذا الشعار البديع، أنا للأمانة لا أعرف من صاغه ولن أعرف أبدًا، قرأته منذ أيام مكتوبًا على مؤخرة توك توك، لكنه للأمانة العلمية لم يكن موجهًا بالتحديد لسيادة الرئيس، كان مكتوبًا هكذا في المُطلق، «دلّعني لاطفش»، وأنا بسوء نيتي تخيلته موجهًا إلى سيادة الرئيس، واعتبرته بمثابة عمود صحفي يحمل تعبيرًا سياسيًّا خالصًا عن حال ومآل السكان الأصليين لمصر الذين لم يعودوا يحلمون سوى بقليل من الدلع يعصمهم من الطفشان عن الأوطان. أعترف بذلك صراحة، فقط لكي لا يضيع أي جهاز أمني وقته في البحث عن سائق التوك توك الذي ليس عليه أن يتحمل ذنب نيتي الأمارة بالسوء.

مرة طلبوا مني في استفتاء إذاعي أبله أن أختار أفضل عمود رأي في الصحافة المصرية، ولأني لم أرد أن أُغضب أحدًا ممن أحب القراءة لهم، أعلنت احترامي لكل كتاب الأعمدة بما فيهم الذين لا يستحقون سوى أن يُعَلَّقوا على أعمدتهم حتى تأكل الطير من رءوسهم، ثم قلت إنني أرى أن أفضل أعمدة الرأي وأكثرها فنًّا وتكثيفًا هي تلك الأعمدة التي يكتبها سائقو الميكروباصات والتكاتك والبيجوهات على مؤخرات ميكروباصاتهم وتكاتكهم وبيجوهاتهم السبعة راكب، طبعًا أقصد مؤخرات البيجوهات لا مؤخرات السبعة راكب، لكي لا يذهب بالك الأمّار بالسوء بعيدًا.

عشقي لأعمدة سيارات الأجرة، والتي هي أشرف بكثير من بعض الأعمدة المكتوبة بالأجرة، عشق قديم سبقني إليه عالم الاجتماع الفذ «د. سيد عويس» الذي درس الظاهرة وصَكَّ لها ولما يماثلها من كتابات على جدران البيوت والحمامات والكباري تعبيره الساحر الجامع المانع «هتاف الصامتين». على أيام المرحوم سيد عويس كان سائق البيجو يكتفي بعمود رأي أو اثنين بالكثير يكتبهما على مؤخرة سيارته، أما الآن فسائق التوك توك يكتب أكثر من عشر عبارات على الضهر والأجناب والمقدمة والأحشاء، مما يستحق تعبير «رغي الصامتين»، هذا إذا وجدت سائق أجرة في مصر كلها قابل في حياته شيئًا اسمه الصمت، صحيح أن أغلب أولئك السائقين يرفعون الآن على سياراتهم شعار «مات الكلام»، وهو شعار ستفهمه خطأً في البداية باعتباره انحيازًا للصمت لكن التجربة ستعلمك أنه يعني «مات الكلام وهتحصله لو ما دفعتش الأجرة وفوقيها زيادة».

لستَ محتاجًا لأن تؤتى علم الدكتور سيد عويس لكي تدرك

أنه لا يوجد صاحب عربية ملاكي قام ولو لمرة برفع شعاراته في الحياة على مؤخرة عربيته، ربما لأنه يعتبر أنه بحصوله على عربية تمليك «قال كل اللي عنده»، تمامًا كما أنك ستجد ظاهرة كتابة أسماء الأنجال على مؤخرة العربية منحصرة فقط في سيارات الأجرة التي يحب سائقوها كتابة أسماء أبنائهم مصحوبة بجملة «وكان أبوهما صالحًا»، بينما يفضل بتوع الملاكي وضع بادجات النيابة والشرطة، ربما لأنهم يدركون أنها عِزوة أهم من عِزوة الأبناء، أو ربما لأن أبناء الملاكي ليسوا مهتمين بكتابة أسمائهم على سيارات آبائهم، بقدر اهتمامهم بأن يتم كتابة السيارات نفسها بأسمائهم.

للأسف، العمود الصحفي الذي أمتلكه ليس ميكروباصًا ولا تكتكًا ولا حتى ملاكي، وإلا لكنت استأذنتك في الغياب يومًا لكي أذهب به إلى عم لمعي الخطاط لكي يزينه ببعض من أعمدة السائقين التي كان يمكن أن توفر لي أحيانًا عناء البحث عن جديد كل يوم، مؤكد كنتَ ستنبسط مني لو وجدت العمود يومًا ما مقتصرًا على جملة واحدة مثل «سلام يا بلد الكلام»، أو «سيبها لله يابو خميس»، أو حتى تلك القصة القصيرة الجامعة المانعة «مش هيصعب عليا حد عشان ما صعبتش على حد». أو لربما اقتديت يومًا بجموح سائق ميكروباص رأيته قبل عام في ميدان الجيزة يتهادى أو يتمادى بمعنى أصح، وقد كتب على مؤخرة الميكروباص بخط واضح القبح «ماليش بديل»، وهي عبارة كانت ستصبح في مكانها السياسي الملائم لو ألفيتها مكتوبة على أي من سيارات الموكب الرئاسي، تخيل لو حدث ذلك ما الذي يمكن أن يحدث للسائق والخطاط؟ استعذ بالله من خيال كهذا، بل استعذ بالله من مقال كهذا، واحمد الله أن الأعمدة الصحفية ليست قابلة

لكتابة الشعارات على أجنابها كالتكاتك، وإلا لأعطينا الفرصة لبعض رؤساء تحرير الصحف الحكومية لكي يعلق على عموده صورتين لنجلي الرئيس كاتبًا إلى جوارهما «وكان أبوهما صالحا».

جيمس بن بوند عندنا.. يا مرحبا يا مرحبا!

(طلبت مني مجلة جود نيوز سينما أن أشترك في ملف خاص تعده عن أفلام جيمس بوند، فشاركت بهذه اليوميات المتخيلة لأول سيناريست مصري يكلف بكتابة فيلم عن جيمس بوند تدور أحداثه بالكامل في مصر)

● ١ نوفمبر: «... ليكن الله في عوني على هذه المهمة التي تنوء بحملها الجبال الرواسي، ولتكن فرصة لنثبت للعالم أجمع أنه لا ينقصنا لكي نصل إلى العالمية سوى أن ننال الفرصة وها نحن قد نلناها، كان الله في العون».

● ١٢ مارس: «لم أكن أظن في أسوأ كوابيسي أن الرقابة على المصنفات الفنية ستكون عقبة في سبيل تحقيق حلم قومي مثل فيلمي، محظورات الرقابة كلها أحفظها عن ظهر قلب واكتويت بنارها سنين طويلة، لذا لم يخطر على بالي أبدًا أن ترفض مديرة الرقابة سيناريو فيلمي لأن به قصة حب ساخنة تنشأ بين جيمس بوند وبطلة الفيلم المصرية السمراء التي أسميتها كليوباترا للاستفادة مما لهذا الاسم من تأثير على المشاهد العالمي، فإذا بي فجأة أصبح في

كل وسائل الإعلام المصرية متهمًا بالإساءة لسمعة الفتاة المصرية التي لا يمكن أن تفرط في شرفها حتى ولو كان لجيمس بوند بجلالة قدره وعظيم سحره، عندما حاولت في أحد برامج التوك شو أن أجد مخرجًا لنفسي بالقول إن جيمس بوند سيتزوج كليوباترا في نهاية الفيلم بإذن الله وبمبرر درامي، لم أكن أعلم أنني سأغرز في الوحل أكثر، الشيخ علي الرفضي أشهر مشايخ البلاد اتهمني بالمروق عن الملة لأنني سأزوج فتاة مصرية مسلمة لأجنبي كافر، وطلب مني أن أتعهد بأن جيمس بوند سيشهر إسلامه في أحداث الفيلم ويصبح اسمه عبد الحق بوند لكي يكون من حقه أن يتزوج كليوباترا التي قال الشيخ الرفضي إنه سيتغاضى عن اسمها طالما أن الهدف النهائي سيكون خيرًا بإذن الله».

● ١٦ مارس: «أخرج من نقرة لأقع في دحديرة، المحامي المثير للجدل حشمت الأخلاقي يرفع عليا وعلى كل من له علاقة بالفيلم دعوى قضائية يتهمنا فيها بالعمالة لأمريكا وإسرائيل لأننا ننفذ خطة محكمة لاختراق العقل الثقافي للأجيال الجديدة، عندما اتصلت به في برنامج توك شو شهير لكي أنبهه إلى أن جيمس بوند بريطاني الجنسية أسفر الحوار عن تطور مهم هو تعديله للدعوى القضائية بإضافة اسم بريطانيا إلى قائمة الدول التي نعمل من أجل تنفيذ مخططاتها الاستعمارية».

● ١٨ إبريل: «يبدو أن أمي كانت على حق عندما قالت إنني مبصوص لي في لقمتي، جهات سيادية تطلب سيناريو الفيلم لكي تتحقق من عدم تأثيره على الأمن الوطني وعدم مساسه بسيادة البلاد».

● ٢٣ مايو: «طبلت على الآخر. في أول إجماع سياسي لم يحدث منذ سنين في مجلس الشعب، أكثر من ٣٥٠ عضوًا برلمانيًا من كتلتي الإخوان المسلمين والحزب الوطني يطالبون الجهات المختصة بوقف أي تصاريح صدرت لتصوير الفيلم وتشكيل لجنة برلمانية للإشراف على تصوير الفيلم منعًا لتصوير أي مشاهد ملتهبة كالتي جرى عليها العرف في أفلام المدعو جيمس بوند، سواء كان بها فتيات مصريات أو أجنبيات، وذلك لعدم تدنيس أرض بلدنا الطاهرة، خلال جلسة الاستماع التي حضرتها أنا وفريق عمل الفيلم المصري حاولت تذكير السادة الأعضاء بعشرات الأفلام والفيديو كليبات التي دنست أرضنا آخر تدنيس، فتكهرب الجو وانتهى الاجتماع باتفاق الأعضاء على إحالة سيناريو الفيلم للأزهر لبيان ما إذا كان من الملائم شرعًا أن يظهر جيمس بوند في هذا الفيلم كسائر أفلامه بوصفه الرجل الذي لا يُقهر أبدًا، وحاشا لله أن يكون من بين عباده من لا يُقهر أبدًا، مع توصية ملحة من اللجنة بأن يتم قهر جيمس بوند في نهاية الفيلم على يد مواطن مصري باسل محدود الدخل، وذلك لتعميق الانتماء الوطني والوقوف ضد مخططات الهيمنة والاستبداد التي تستهدف مسيرة الاستقرار في وطننا الحبيب، على أن يُترك لكاتب السيناريو تحديد الكيفية التي يتم بها ذلك».

● ٢٤ مايو: «... هذا وقد أحيلت جميع الأوراق السابقة التي وجدت ضمن يوميات السيناريست المذكور إلى نيابة قصر النيل لاستكمال التحقيق في ملابسات انتحاره مساء يوم ٢٣ مايو، وأقفل المحضر في ساعته وتاريخه».

حضتك في مصر!

عم لاشين هو الفكهاني الوحيد في شارعنا. مشكلتنا معه أنه لا يبيع صيفًا وشتاءً إلا البلح، ومع ذلك فهو يزعل كثيرًا عندما نصفه ساخرين بالبلحاني، معتبرًا بجدية أن تخصصه في البلح لا ينفي قدرته على أن يكون فهكانيًّا شاملًا، من شدة تأثره بالموضوع علق لفترة لافتة كتبها له سيد سكانر عامل محل التصوير، تقول بالخط المليان «فكهاني لاشين.. أخصائي بلح»، اللافتة كانت شؤمًا على عم لاشين لأن البلدية بعدها صادرت له الفرشة أكثر من مرة، فحرق اللافتة فورًا بعد أن أقنعه رمضان بتاع الفول أن اللافتة هي التي جعلت البلدية تراه، وفي المداهمة التالية وبينما لاذ جميع البائعين بالفرار متعثرين في كراتين فرشاتهم، وقف عم لاشين صامدًا رابط الجأش مكتفيًا بالتمتمة: «وَجَعَلْنا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِم سَدًّا فَأَغْشَيناهُم فَهُم لا يُبصِرُونَ»، لكنهم أبصروه وغشيوه، فشالوه مع الفرشة لأن الباشا عايزه، وفي لقائه مع الباشا اتضح له أن سر المداهمات المفاجئة هو أن الباشا مسئول حملات البلدية الجديد لم يكن قد وضع بعد تسعيرة الرشاوي الجديدة، وفور أن استقر عليها بدأ في عكش الباعة لإبلاغهم بها ليأخذ القانون مجراه.

شؤم اللافتة إياها طال سيد سكانر نفسه بعدها بأيام، مدام فكرية صاحبة المحل رفدته لأنه «تَقّل» في شرب البانجو، مع أنه حلف على عدم الشرب خلال مواعيد العمل العرفية، سيد نسي الحلفان لأنه كان يمر بأزمة عاطفية ملتهبة جعلته يصور خلفيته عارية على ماكينة التصوير ثم يرسل الصور في ظرف مفتوح لأبو حبيبته الحاج محمود الذي لم يرفض فحسب طلب سيد بالزواج من ابنته سحر، بل أشهر المسدس المرخص في وجه سيد مصممًا على أن لا يسمح له بمغادرة البيت، إلا بعد أن يغسل كرسي الأنتريه الذي جلس عليه سبع مرات كلهن بالتراب، على أساس أن سيد كلب ابن ستين كلب ونسي أصله، وسيد الأصيل أخذ يغسل وهو صامت متحايلًا على الدموع ألا تغادر عينيه، ومقبّلًا يدي الشيطان لكي لا يواصل الزن عليه ويسول له أن «يُسَيّح» أمام الحاج بأسرار خلواته المتهمة مع سحر في ظلمات كورنيش المماليك. سيد انتظر انتهاء الحاج محمود من سلسلة الإهانات المتكررة طيلة رحلة غسيله المريرة، وقبل أن يخرج من باب الشقة مبلولًا من خارجه وداخله، التفت إلى الحاج محمود وقال له بصوت متهدج: «إنت كده وقفت حال بنتك يا حاج.. بكره لما ترفض كل اللي متقدمين لها هيطلع عليها سُمعة إنها ليسبيان»، الحاج محمود وقف صامتًا يحاول فهم الكلمة الغريبة التي صكت سمعه، فيما اندفعت أم سحر من الداخل مدافعة عن فلذة كبدها: «قطع لسانك يا واطي.. أنا بنتي مش معرقبة»، والحاج لعب الفار في عبه، وأمسك بخناق ابنته قائلًا لها: «في إيه بينك وبين الواد ده؟»، وسحر أجهشت بالبكاء وقالت: «المفروض يكون عندك ثقة في بنتك يا بابا»، وبابا ثقته في سحر لم تكن كافية لذلك ذهب ليرابط

أمام معهد «آي إل آي» في آخر شارع أحمد عرابي، بعد أن دله عليه أولاد الحلال، وسأل أول خارج توسم فيه الخير عن الكلمة وعندما عرف معناها أجهش بالبكاء، وذهب إلى سيد وخفض له جناح الذل قائلًا: «يا ابني طول عمرنا بنقول سيد لسحر وسحر لسيد.. عايزين نلم الموضوع»، وسيد شنتح غلبت وطايته عليه وانتهز الفرصة وقال: «طيب اديني فرصة أفكر»، ثم بعث له في اليوم التالي الظرف الحقير الذي جعل الحاج محمود يغير رقم تليفون البيت ورقم تليفون سحر وعدتها والجامع الذي يصلي فيه، بينما أعادت مدام فكرية سيدًا إلى المحل بعد أن أقنعها أن تصوير الصور العارية وبيعها أجدى بكثير من تصوير البطايق.

أول أمس مش فاكر الساعة كام كنت أقف مع عم لاشين لأسأله كعادتي كل يوم: «ما عندكش برتقان»، وهو يجيبني كعادته كل يوم: «ما بنبيعش غير بلح»، شعرت أن مزاجه رايق فسألته: «ألا قول لي يا عم لاشين هتعمل إيه بحصتك في مصر؟»، وهو لم يكن مهذبًا وقال لي: «إنت جاي تفوّق علينا يا أفندي»، فاضطررت أن أشرح له حكاية صكوك الملكية التي تنوي الحكومة المباركة توزيعها على كل مواطن بالغ عاقل، حالفًا له على كيس بلح أنني أنا وهو وسيد سكانر وجمال مبارك وفكري بتاع البيض سيكون لنا نفس الحصص في مصر، ومع أنني اضطررت لأن أعيد كلامي مرة أخرى لسيد وفكري عندما طلب منهما لاشين أن يحضرونا، إلا أن لاشين السوداوي رفض أن يصدق كلمة مما قلته منهيًا المناقشة بقوله: «والنبي لو ليك حد في الحكومة قولهم لاشين بيقولكو لا تسرقوني

ولا عايز منكو صك»، وسيد سكانر برغم تباين الأجيال أثنى على قوله بيقين: «يا أستاذ عيب ده إنت متعلم.. صك إيه وبتاع إيه.. هو في حاجة نابتنا من الحكومة غير الصك على قفانا».

وأنا أخذت البلح ومشيت.

رجمًا بالغيب!

بعد أن أعلنت شركة أمريكية مارقة عن اختراع ساعة رقمية تقدم عدًّا تنازليًّا لنهاية فترة الرئاسة الثانية للرئيس الأمريكي جورج بوش مطلقة على الساعة اسم «الكابوس القومي»، انبهر بالاختراع صديقنا الذي يكثر من السفر إلى الخارج بحكم عمله وعقد العزم أثناء سفره إلى «الإيستيتس» على إحضار هذه الساعة إلى مصر بأي ثمن، وقبل عودة صديقنا بيومين أبرق إلينا على موبايلاتنا لكي نتأهب لمشاهدة الساعة العجائبية في حفل ساهر قرر أن يقيمه بمنزله العامر في نفس يوم عودته من بلاد بره.

كالعادة تأخر الحفل عدة ساعات لأن صديقنا تأخر في مغادرة المطار بعد أن احتجزه موظفو الجمارك لتحديد المبلغ الذي ينبغي دفعه للسماح للساعة بالدخول، خاصة أن صديقنا كتم طبيعة عملها عن موظفي المطار حرصًا على عدم تحويله هو والساعة وزوجته إلى قلب الأنفاق التي سمع أن وزارة الداخلية افتتحتها تحت مقرها الجديد، للأمانة كان الموظفون منطقيين عندما رفضوا تصديق أن الجهاز الماثل أمامهم ليس سوى ساعة لأن اللائحة تقول إن الساعة لها عقارب ولا تلدغ، كما أن منظر مؤشر الساعة الذي يصدر الأرقام

التنازلية بدا مثيرًا للريبة خاصة أنها لا تمشي بحجارة عادية بل بحجر ديجيتال، وهو ما دفع موظفة تمشي بالأصول لاقتراح تشكيل لجنة من قدامى الموظفين لتحديد طبيعة الشيء الذي يدعي الراكب أنه ساعة، لكن رئيسها المستنير لامها لأنها «محبكاها» وقرر الاكتفاء بإحالة الساعة إلى أكاديمية مبارك للبحث العلمي، وبعد لأي اضطر صديقنا لاستخدام نفوذه وتفتيح مخه، ليتم السماح للساعة بالمرور بعد أن عوملت جمركيًّا بوصفها «فرن بالتايمر».

لم نعاتب صديقنا كثيرًا على تأخيره لأن دخوله علينا حاملًا الساعة بين ذراعيه أنسانا كل همسات العتاب، تسابقنا جميعًا على تحسس الساعة والتمليس عليها فضلًا عن التقاطنا الصور إلى جوار مؤشرها التنازلي بضحكات متصاعدة منبعها شعورنا بالفرحة لأن ما تبقى من الزمن على نهاية فترة بوش الثاني لا يبدو طويلًا ويمكن لنا أن نحضره بقليل من الصحة وكثير من التوفيق الإلهي.

فسدت السهرة عندما طلع صديق سيئ النية فجأة كالإسمه إيه سائلًا بحماس: «تفتكروا نقدر نشغل المؤشر التنازلي بتاع الساعة على ميعاد انتهاء الفترة السادسة لحكم الرئيس مبارك»، لكن حماسه باخ عندما قال صديقنا صاحب الساعة متحرجًا إنه لن يستطيع تنفيذ الاقتراح لأن لديه جار يعمل رئيسًا لتحرير صحيفة قومية ويخشى أن يكتب فيه تقريرًا خاصة أن وجود اسم الكابوس القومي على الساعة سيحولها إلى منشور سياسي ضد الرئيس «وأنا رجل أعمال ومصاريني في السوق ومش هينفع أتكهرب لأن عندي بواسير»، تطوع صديق محام لطمأنة صديقنا بأنه سيقف جنبه في أي أزمة خاصة أنه سيخرج من أي تحقيق دون الحاجة لاستعمال الكهرباء معه لو قال

بتلقائية إنه ضبط الساعة بهذا الشكل لكي تذكره بالكابوس القومي، وهو نهاية حكم الرئيس مبارك بعد أن استريحت له مصر أكثر من ربع قرن أعطته فيها أعز ما تملك، كرسي الحكم.

لم يطمئن صديقنا تمامًا إلا بعد أن دخلنا إلى الريسبشن بعيدًا عن البلكونة لأنها «مجروحة من جاره القومي» الذي شكا الجيران كثيرًا من تلصصه عليهم ليلة كتابة مقاله الأسبوعي، أسدلنا الستائر وصفرنا مؤشر الساعة واستعنا بصديقنا المعيد في هندسة الاتصالات لكي يدخل عليها بيانات بدء الفترة السادسة من حكم الرئيس مبارك، وعندما دسنا زرار تشغيل المؤشر التنازلي لنهاية حكم الرئيس مبارك ارتجت الساعة رجة أفزعتنا جميعًا، حاول صديقنا الأكثر عدمية أن يمتص خيبة أملنا بتذكيرنا ساخرًا أن الساعة مصممة بشكل علمي ولا تستطيع أن ترجم بالغيب، لكن ما حدث كان أغرب من أن يصدقه عقل، فجأة تحرك مؤشر الساعة الإلكتروني ليكتب أرقامًا عشوائية توقفت هي الأخرى بغتة، وبعد لحظات من الصمت الرهيب فوجئنا جميعًا بلوحة الساعة الإلكترونية تكتب لنا بالإنجليزية «أنهي مبارك فيهم؟».

أيها الراقدون فوق الشعوب أفيقوا!

كلما شاهدت على الهواء مباشرة وقائع تشييع جثمان حاكم من الحكام العرب، وهي مناسبة قلما نراها لأسباب لا يعلمها إلا الله، شغلتني بشدة محاولة تفسير تلك السعادة التي تصيب الناس يومها وهم يرون حاكمًا يتساقط على طريق السلطة، يموت حاكم عربي جديد وأموت وأعرف ما الذي يجعل الناس يتحلقون حول شاشات التلفاز للفرجة بشغف على تجمع الزعماء لأداء صلاة الجنازة وكأنهم يتفرجون على ماتش باسكت أو مسرحية لمحمد نجم، تدور بينهم أثناء الفرجة السندوتشات وأكواب الحاجة الساقعة واللب الأبيض وتتوالى التعليقات «شايف بيوطي إزاي».. لاحظ أن بيوطي هذه تستخدم للأسف لوصف الركوع.. أو «بص بيصلي إزاي من غير نفس.. يا عم تعالى على نفسك شوية واسجد بذمة.. شايف الريس ده بيبص للكاميرا إزاي.. بص ده حاطط إيده تحت بطنه إزاي.. إنت بتبص فين يا عم إنت.. هو إنت قاعد في المقصورة ده جامع يا عم الحاج.. يستجري الإمام يطول في السجود كانوا يعدموه.. بص مش قادرين يقفوا إزاي أمال بيقفوا زي الألف مع بوش ليه».. وهكذا تتوالى التعليقات التي قد يكون من اللائق أن نسمعها في

ماتش كورة أو على مسلسل في قناة الحكايات، لكن بالتأكيد من غير اللائق ولا المستحب أن تسمعها في مناسبة جليلة تجمع ما بين رهبة الموت وقدسية الصلاة، ومع ذلك أنا وأنت نسمعها، خلينا لا نضحك على بعضنا البعض، وخلينا قبل ذلك وبعده نحاول تفسير لماذا يحدث ذلك.

دعنا نسأل بعضنا البعض جملة من الأسئلة على أمل أن نجد إجابات عليها، لم لا، فالسؤال ما حرمش، أو دعنا ننتهز الفرصة ونسأل قبل أن يحرموا علينا السؤال: لماذا لا يصدق الناس في بلادنا العربية أن الحاكم العربي يقف بين يدي الله خاشعًا حقًا وصدقًا، هل السبب فقط هي وقفته المتعالية التي ليس فيها من مظاهر التذلل للخالق شيء، أم هي حالة العبودية التي تسكن روح المواطن العربي الذي تعود أن يرى المواسين والمنافقين وهم في مقام التذلل والخضوع للحاكم فصار في داخله لا يصدق أن هذا الحاكم يمكن أن يضع كل ذلك خلف ظهره ويقف متذللًا وخاضعًا بين يدي الله، أم هي أثقال الظلم والفساد والبطش والقهر التي يحملها الحاكم العربي على ظهره فتجعل وقفته بين يدي الله وقفة تؤرقه وتربكه وتزيغ عينيه، هل ينقح عليه ضميره إن وجد في موقف جليل كهذا؟

لماذا نظن في قرارة أنفسنا أن هذا الفم الذي تعود على إصدار القرارات والفرمانات لا يمكن له أن يتمتم بخشوع «سبحان ربي الأعلى وبحمده»، لماذا لا نصدق أن هذه الانحناءة بين يد الله صادقة وأن هذا السجود خاشع وأن ذلك الإصبع الذي يتحرك مشيرًا بكلمة التوحيد ليس ذات الإصبع الذي يشير باعتقال هذا أو تشريد ذاك أو

بيع تلك الشركة أو إغلاق تلك الصحيفة. ولماذا يخاف الحاكم العربي حتى وهو بين يدي الله من أن يتعرض للاغتيال فلا يستطيع السجود دون أن يكون محاطًا بالمئات من حرسه السري والعلني، هل يدرك في قرارة نفسه أن السجود بين يدي الله لم يمنع من اغتيال الخلفاء الراشدين الذين ملئوا الدنيا عدلًا ونورًا فكيف الحال به وهو الذي ملأ الدنيا ظلمًا وظلامًا، ولماذا لا يطأطئ أغلب المسئولين رءوسهم وهم واقفون بين يدي الله ولو حتى من باب النظر إلى موضع السجود، لماذا يسرحون وتدور رءوسهم باحثة عما حولهم فتفضحهم عدسات التلفزيون أحيانًا إن لم يكن غالبًا، فيم يفكرون وأين تذهب بهم خيالاتهم في موقف جلل كهذا؟ هل تذهب بهم الأفكار إلى تلك المنطقة التي تذهب إليها أفكارنا عادة في الجنازات فنتخيل أنفسنا في موضع من نصلي عليه.. ونبدأ في سؤال أنفسنا عن ما الذي سنفعله إذا حانت لحظتنا وأقبلنا على الموت؟ أم أن ما هم فيه من هالة وهيلمان يمنعهم من أن تصل بهم أفكارهم إلى هذه المناطق المؤرقة؟ وإذا كانوا يفكرون حقًا في الموت ولو في لحظات كهذه فلماذا لا يتصالحون مع شعوبهم كما يفعل عادة من يشعر بمداهمة خطر الموت له أو حتى باقترابه منه؟ هل هناك حاكم عربي كتب وصيته حتى لو كانت هذه الوصية تتضمن الباس وورد بتاع بنوك سويسرا على الأقل لكي نتأكد أنه يؤمن بأنه راحل عن هذه الدنيا الفونيا وذلك الزمن الكباس؟ هل يؤمن الحكام العرب بذلك المبدأ الإسلامي الجليل الذي يطلب منا إذا أصبحنا ألا ننتظر المساء وإذا أمسينا ألا ننتظر الصباح؟ أم أن طول بقائهم على كراسيهم في حين تتبدل الدنيا وتتغير جعل شعور الخلود ينتابهم ولو أحيانا ليشتركوا في

ذلك مع مصاصي الدماء؟ لماذا يتحدث الحاكم العربي عن الموت والكفن وجيوبه والقبر والحياة الآخرة عندما يأتي إلى الحكم ثم يختفي ذكر الموت من على لسانه إلى الأبد بعد ذلك؟ وهل نكون ظالمين ومتحاملين عندما نقول إن الحكام العرب لا يفكرون في الموت مع أنهم فيما يبدو يؤمنون بأنه إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث على رأسها «ولد صالح يدعو له» ولذلك فهم يعدون أبناءهم لكي يكونوا صالحين لخلافتهم حتى لا ينقطع عملهم في شعوبهم.. متى يأتي «عبوهاب» جديد ليغني لهؤلاء الحكام الأزليين «أيها الراقدون فوق الشعوب أفيقوا»، مثلما غنى عبد الوهاب القديم لكي يفيق الراقدون تحت التراب؟ وهل يتوقف الحاكم العربي يومًا ما عن الاستماع إلى جوقة الموالسين التي تغني له دائمًا وأبدًا عش أنت إني مت بعدك؟ وإذا كان الموت الذي نعلم جميعًا أنه كفى به واعظًا لن يعظ الحكام العرب فما هو الذي يمكن أن يعظ الحكام العرب غير بوش وكونداليزا رايس؟

حملت أسئلتي الحائرة هذه إلى عدد من الأصدقاء ثاقبي النظر فلم أجد عليها أي إجابة، بل إن صديقًا غيورًا على دينه أضاف إليها سؤالًا جديدًا عندما سألني بحرقة: نفسي أعرف ماذا سيقول الحكام العرب لله عز وجل يوم القيامة عندما يسألهم ماذا فعلتم بشعوبكم؟ قلت له: والله سؤال وجيه ومن خلال متابعتي لمشوارهم الحياتي والفكري أعتقد أنهم أكيد هيقولوا: مفيش اختيارات.

واصل صديقي أسئلته ولكن بلهجة تحدي هذه المرة قائلًا: طيب تفتكر أين ستنعقد أكثر قمة عربية موسعة في تاريخ القمم العربية؟ ظننت أنه يسخر مني فقلت له بعدوانية: ودي عايزة كلام أكيد في

شرم الشيخ. قال لي بسخرية لا تليق ولا تصح: لا طبعًا.. قمة زي دي يشترك فيها كل القادة السابقين واللاحقين لن يكون أمينها السيد عمرو موسى بل سيكون سيدنا مالك.. لأنها أكيد ستنعقد عنده في.. جهنم.

في فلسفة الغيارات!

المصريون هم الذين كثفوا حياتهم بأيديهم عندما أطلقوا ذلك التعبير الشعبي البليغ «اللي نبات فيه نصبح فيه». لم يعد مصطلح التغيير يحضر في مصر إلا في حالتين قلما تجد لهما ثالثة، الأولى الملابس الداخلية، والثانية قيادة السيارات، وتلك لعمري إحدى مضحكات مصر المبكيات.

المثير للتأمل أنك لا يمكن أبدًا أن تفصل دلالات ومعاني استخدام المصريين لمصطلح الغيار في مسألة الملابس الداخلية عن استخدامه في السياسة الداخلية، أو حضوره في ميدان قيادة السيارات عن حضوره في ميدان قيادة الشعوب، وهاقولك إزاي!

خذ عندك مثلًا هذه الملاحظة، ألا تلاحظ أننا برغم استخدامنا في حياتنا تعبيرات مثل «هاغيّر هدومي وآجي لك يا حياتي» أو «غيّر هدومك وتعال اطفح يا منيّل» إلا أننا نطلق على الملابس الداخلية وحدها من بين كل أنواع الملابس تعبير الغيارات، لا تدري لماذا، بل ونعطي لها أهمية خاصة لدرجة أنها تكون أحيانًا مؤثرة بشكل حاسم في استمرار أو إنهاء العلاقات الزوجية، يشكر الرجل في زوجته أنها

دايمًا بتخلي غياراته نضيفة وزي الفل، أو يقول شاكيًا باكيًا «تخيلي يا ماما أنا اللي باغسل غياراتي بنفسي». ليس ذلك فحسب فالغيارات هي معيار من معيار تقييم نضافة الرجل في مصر، فالرجل النضيف في مصر هو الذي يلبس غيارًا نضيفًا كل يوم، لكن العجيب أن نفس الرجل يمكن أن يستحمل حاكمًا لمدة ٣٠ سنة من دون غيار، برغم كل ما يجلبه ذلك من أمراض والتهابات ورائحة مقرفة، وبرغم أن غيار الحاكم أفيد للصحة بكثير من تغيير أي غيار آخر، كيف لا تدري ولماذا لا تفهم؟! هذه هي طبيعة الحال في بلادنا وعليك أن تدعو الله أن يرزقك فهمها يومًا مّا لعلك تستريح، أو لعلها تتغير وتبقى زي الفل.

بمناسبة الفهم تستطيع أن تفهم بسهولة لماذا يلجأ الإنسان إلى استبدال غياره القديم بغيار جديد، يعني الأسباب لا تخفى على فهمك، لكنك في مصرنا الخالدة لا يمكن أبدًا أن تفهم سر أي غيار سياسي أو صحفي، فهي غيارات مفاجئة وعبثية أحيانًا، تجد المسئول أحيانًا يثني على الغيار الذي يقدمه للناس ويقول فيه أحلى كلام ويدافع بشراسة عن كل اتهام يتهمه الناس له بأن رائحته مش ولابد أو أنه توسخ أو أنه غير مريح في الحكم، لكنه يظل حتى آخر لحظة يحلف لهم أنه ناصع البياض وزكي الرائحة وهمَّ اللي مش واخدين بالهم، ثم فجأة ودون مقدمات يقوم بقلعه واستبداله بغيار جديد، دونما أسباب أو مقدمات أو مبررات، وتنتقل فورًا وحالًا حالة الدفاع عن الغيار إلى الغيار الجديد، حتى يتهرأ ويتم استبداله فجأة كسابقيه من الغيارات.

ولأننا أناس عاطفيون وشديدو الالتصاق بأشيائنا الحميمة فإننا

دائمًا نَحِنُّ إلى غياراتنا القديمة ونترحم على أيامها برغم أننا ونحن في ظلها نكرهها ونسبها ونلعنها، لكننا بمجرد مفارقتنا لها واستبدالنا لها نبدأ في المعاناة وعدم التكيف مع الغيار الجديد فنأخذ في سرد مآثر الغيارات القديمة وترتفع نغمة «رُبَّ غيار كنت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه»، ربما لأن من يقوم بالغيار لنا لا يحسن أبدًا اختيار الغيار الجديد، دائمًا يختاره أقل كفاءة وقدرة وموهبة ونزاهة، فنضطر لإعادة تقييم الغيار القديم ورد الاعتبار له، يعني ياما شهدنا زمان غيارات صحفية لأسماء كانت تؤدي بكفاءة وموهبة دورها في ستر عورات الحكام لكن كان لديها أسلوب في الكتابة على الأقل، أسماء كان لديها كفاءة مهنية عالية، ولم يكن يعجبنا ما تفعله، لكننا عندما اكتوينا بنار لاحقيها أخذنا نترحم على أيامها العطرة، وظللنا نتعجب لماذا يحتفظ الحاكم بغيارات المتغطي بها عريان، غيارات غير نضيفة وغير مريحة، والأدهى من ذلك غير ساترة له، بل تساهم في إبراز عوراته بشكل مخجل، وبرغم ذلك يستمر في ارتدائه لها حتى تهلهلت وتهرأت وأصبحت مدعاة للسخرية في العالم كله، وبات واجبا عليه أن يضحي بها من أجل أن يعيش هو برغم أنها التصقت بجلده، ولو استمر في احتفاظه بها مزيدًا من الوقت لما كانت قد خرجت منه إلا بعملية جراحية تستأصل جزءًا من جلده الذي امتزجت به الغيارات، لكنه وكعادته لم يختر غيارات مناسبة وملائمة بل اختار غيارات أقل في الكفاءة وأسوأ في الخامة وأكثر إبرازًا للعورات، حتى أن السؤال الذي بات يطرح نفسه كلما حدثت هذه الغيارات هو «من هو ذلك الأعمى الذي ينقي له غياراته؟».

مصطلح الغيار يحضر بدلالاته الملتبسة المثيرة للتأمل في موضوع

قيادة السيارات، فحتى وقت قريب كان ينبغي لمن يقود السيارة أن يكون قادرا على عمل الغيارات بسهولة وسلاسة، لأن ذلك هو أهم ما في القيادة قاطبة، أما باقي القصة مجرد تفاصيل تتعلق برغبة الإنسان في السرعة أو التمهل، حتى أنه قد جرى العرف على أن القائد الماهر ليس هو الذي يسوق بسرعة جنونية بل الذي يقدر على النقل بمهارة وتميز وحرفنة، وبرغم كل هذا إلا أننا أيضًا لا نطبق هذا المفهوم أبدًا في القيادة الحقيقية، الأخطر على الأرواح والأكثر تطلبًا للمهارة في نقل الغيار، قيادة الأوطان.

قولوا لي بالله عليكم كم عامًا ظللنا نسير على غيار واحد رتيب لا يتغير ولا يتبدل، «متعشقين» على الأول حتى اشتكت تروس بلادنا وصدأت وذابت وصارت تسير بقوة الدفع الذاتي، واللي يحب النبي يزق، ثم فجأة وبعد أن كاد موتور الوطن يحترق طلعوا علينا بدعوة ضرورة الغيار السريع الجديد العاجل، استبشرنا خيرًا وفرحنا وقلنا أخيرًا سنفتح على الرابع لنحاول اللحاق بركب الأمم من حولنا، الأمم التي تنتقل من غيار إلى آخر برشاقة وخفة وانسيابية في الحركة، لكن فرحتنا بالغيار الجديد لم تكتمل فقد أتوا لنا بحكومة إلكترونية.. حكومة أتوماتيك، ليس بها غيارات خالص. يعني السادة الأفاضل بدلًا من أن يغيروا الموتور المفوّت، قاموا بتغيير الفتيس لزوم العياقة والمنظرة أمام قادة العربيات الأخرى، وشوفوا بقه إذا كان غيار الحكومة العادة يأخذ سنين طويلة تشكو فيها عربة الوطن من النهب والسلب والكذب والتصريحات الوردية والسباحة في بحر الطحينة، فما بالكم بالغيار الأتوماتيك الذي سيقضي على ما تبقى من موتور العربية ويحيله إلى التكهين الأبدي.

لست أنشر اليأس، أنشر بقى على أساس غيارات وكده.. لا.. لا تظنوا ذلك بي لا سمح الله، فلديّ أمل أكيد ويقين راسخ أن الله سبحانه وتعالى سيرأف بهذه البلد وسيجنبها أي مصير مؤلم وسيختار لها أناسًا تختار لها غيارات نضيفة، وتجيد النقل من وضع قيادة إلى آخر طبقًا لحركة السير في طريق الحضارة، أناسًا تفهم بجد.. في الغيارات.

شاطرون في الإملاء

هل تستطيع أن تتذكر كم مرة في حياتك البائسة شاهدت في نشرات الأخبار المحلية هذا المشهد المثير للسخرية والألم؟

مسئول كبير في الدولة يتخذ وضع المدلي بتصريحات ما، عادة لا يكون لديها أي أهمية، ولا تكشف أي جديد، ولا تتعدى كونها وعودًا كاذبة أو وعودًا سيثبت أنها كاذبة، وأمامه في وضع المتلقي يجلس أو يقف مجموعة من الصحفيين يقومون بكتابة ما يمليه عليهم المسئول ورءوسهم مطأطئة، كل همهم أن يتسابقوا في كتابة ما يمليه المسئول مع أنهم سينشرونه جميعًا في الغد في صحفهم بنفس النص ونفس العناوين بل ونفس الديباجة، دون حتى أن يفكر أحدهم في أن يطلب من المسئول أن يوزع عليهم بيانًا به التصريحات التافهة التي يدلي بها راحة لأيديهم وأعصابهم وتوفيرًا لوقتهم وأوراقهم.

قارن ذلك بما تراه على قنوات الأخبار في المؤتمرات الصحفية التي تعقد في الدول المتقدمة الحرة التي لا تجوع ولا تأكل باسمهما إيه، حيث يقف المسئول في أقصى درجات التركيز والحذر أمام صحفيين كل منهم أقوى من الآخر في مهنته يتعاملون مع المسئول

على أنه صيدة لا بد أن يغنموا منها ما يعودون به إلى القارئ أو المشاهد الذي ينتظر منهم أن يكونوا ممثلين له خير تمثيل، في يد كل منهم دفتر ملاحظات صغير يدون فيه ما يراه مهمًّا أو صالحًا للنشر من كلام المسئول الذي لا يعرف ما سيسأله فيه الصحفيون وليس لديه أساسًا ما يمليه عليهم، لأنه لو لم يكن لديه ما يقوله لاكتفى ببيان مقتضب يتم إرساله إلى الصحف والمحطات بالفاكس، يتم عادة عدم الالتفات إليه أو إيجازه في سطر واحد إن لم تتم السخرية منه أو بستفته في أغلب الأحوال.

لا تشغل نفسك الآن بالمقارنة بين صحفيين يكتبون ما يملى عليهم وصحفيين لا يجرؤ أحد أن يفكر في الإشارة إلى أنه يريد أن يملي عليهم شيئًا، عد لاسترجاع مشهد الصحفيين الواقفين للتسابق على تملي ما يكتبه المسئول والتملي في جماله، «سيِّف» هذا المشهد على سطح ذاكرتك لأننا سنستخدم ذاكرتك في الرجوع إلى عدد من السنوات يزيد أو يقل حسب عمرك، باختصار سنعود بك ومعك إلى أيام المدرسة الابتدائي وبالتحديد في حصة اللغة العربية التي كان يطاردك فيها بعبع اسمه الإملاء، لست أطمع بالطبع في أن تتذكر اسم أول مدرس عربي في حياتك، أو أول كلمة قمت بتمليها، بل أطلب منك أن تعود إلى تلك الأيام التي كان الإملاء فيها شيئًا مهمًّا في حياتك يترتب عليه معاملتك أفضل معاملة من قبل أستاذك وتلقيك نظرات الحسد والغبطة من زملائك، وحصولك على زيادة في المصروف من أهلك لو كان عندهم ضمير، كل هذا كان يحدث عندما تنال ذلك الوسام الخالد المتمثل في عبارة «شاطر في الإملاء». هل كنت من الذين حصلوا على ذلك الوسام، لو كنت

كذلك أرجوك لا تتخيل أنني أهدف لإثارة مشاعر العزة والفخار في نفسك، ودفعك لكي تحكي أمجادك الدراسية لزوجتك أو خطيبتك أو أولادك وتحكي لهم كيف كان كل من يراك يتنبأ لك بمستقبل باهر مشرق.

أما لو كنت من أولئك المغضوب عليهم لأنهم يا عيب الشوم «ضعاف في الإملاء»، وهم عادة الغالبية العظمى في أي صف دراسي في أي مدرسة في أي سنة في مصر، فأرجوك لا تعتقد أنني أهدف بإثارة هذا الموضوع لكي أقلب عليك المواجع أو أن أذكرك بأنك كنت فاشلًا فأحرجك أمام المدام والأولاد أو أعيد إذلال والدك ووالدتك لك بعد أن نسيوا واندملت جروح المدرسة بفعل جراح جديدة هي جراح الجامعة أو جراح البطالة أو جراح الزواج.

خلاصة القول ليس لدي أغراض نبيلة أو دنيئة من فتح ملف الإملاء في حياتي وحياتك، كل ما هناك أنني أحاول أن أتأمل معك كيف كنا نعتقد في بداية حياتنا خطأً أن الإملاء مجرد فرع من مادة نأمل أن ننجح فيها أو حتى نفشل فيها بشرف، بينما الإملاء في حقيقة الأمر هو أكثر من ذلك، هو قدر يطاردنا طيلة حياتنا، هو فلسفة تحكم حياتنا وتتحكم فيها في هذه البلاد التي لا يمشي حال المرء فيها إن لم يكن شاطرًا في الإملاء.

الإملاء. تأمل أساسًا في هذه الكلمة البغيضة التي لا أدري كيف تعايشنا معها طيلة عمرنا دون أن نحاول البحث عن بديل لها، بديل يحقق نفس الغرض ولكن بشكل يحفظ ماء الوجه، بديل ليس فيه تلك الجملة اللعينة «اكتب ما يملى عليك» والتي هي في حقيقة

الأمر الجملة الأكثر تأثيرًا ومركزية في حياتنا التعيسة في بلادنا العربية من الخليج الهابر إلى المحيط الحائر، والتي يعيش فيها المواطن العربي دورة حياة من الإملاء، في البيت يكتب ما يُمليه عليه أبوه، وأبوه يكتب ما تمليه عليه زوجته، وزوجته تكتب ما تمليه عليها أمها. وكل هؤلاء يُملون على أبنائهم ما يجب أن يفعلوه في حياتهم. في المدرسة المدرس يُملي على الطلاب ما يُمليه عليه خبراء وزارة التعليم، وهؤلاء يُملي عليهم الوزير ما ينبغي أن يفعلوه، والوزير يتملى من رئيس الوزراء ما أملاه عليه رئيس الجمهورية الذي يقول للصحفيين الذين يقفوا ليكتبوا ما يمليه عليهم من تأكيدات قاطعة بأنه لا يخضع لأي إملاءات خارجية حتى لو كان الجميع يعلمون أنه يكتب ما يُملى عليه من البيت الأبيض. في الجامعة يستمر الإملاء لكنه يصبح اختياريًا فقط أو إجباريًا بشكل مقنع، فالطالب الشاطر هو الذي يتملى المحاضرات ويملأ منها الكشكول تلو الكشكول، ويسمح لزملائه بتصوير ما تملاه ليقوم الجميع بإعادة إملائه في أوراق الامتحانات، وأشطرهم في الإملاء والتملي هو الذي يتم تعيينه دكتورًا في الجامعة ليساهم في استمرار دورة الإملاء إلى الأبد. أما الأقل شطارة فهو ينتقل إلى موقع من مواقع العمل الحكومي أو الخاص أو المختلط، ما تفرقش كتير، لأنه في كل الأحوال سيضطر لكي ينفذ ما يملى عليه من رئيسه في العمل دون أن يفكر في مناقشته أو معارضته أو تصويبه، ولو أكرمه الله ورضي عنه رئيسه سيتمكن من الاستقرار والترقي وسيصبح في مقدوره أن يتزوج زوجة يُملي عليها ما يجب أن تفعله، وقد تكون هي أشطر منه في الإملاء فتملي عليه هي ما يجب أن يفعله، وعندما يرزقهما الله بطفل سيشترك الاثنان

في إملاء ما يجب أن يفعله عليه وسيذكرانه بأنه إذا أراد أن يرضى الله عنه فعليه أن يعيش كما يُملى عليه، وهكذا دواليك.

ولست أدري ماذا نقول لله عز وجل إذا سألنا يوم القيامة: لقد خلقتكم أحرارًا فلماذا قررتم أن تعيشوا كما يُملى عليكم.

الأصفر مع الجرين!

أنا لست رزلًا أبدًا. لو كنت كذلك لاتصلت فورًا بأصدقائي من الفنانين الذين شاهدهم الملايين عبر وسائل الإعلام ممتلئين حبورًا ومنشكحين سرورًا أثناء وقوفهم وسط لوحات معرض وزير الثقافة المؤيد الفنان فاروق حسني، ولطلبت منهم أن يبسطوني معهم فيشرحوا لي ولو لوحة من تلك اللوحات التي شكحتهم كل ذلك الانشكاح.

لكن يشاء السميع العليم أن يكفيني ويكفيهم شر الرذالة والإحراج، فيسوق لي على الهواء تحليلاتهم للوحات الوزير من خلال حلقة من برنامج «عيون إي آر تي» قدمتها المذيعة اللامعة بوسي شلبي، فجعلتني وغيري مدينين لها بـ«جميلة» إعادة قراءة لوحات الوزير التي كدت أرتكب جرمًا فادحًا بعد مشاهدتي لها في بعض الصحف، حيث وسوس لي الشيطان أن أرفع دعوى على سيادته لأتهمه بالتناص مع رسومات ابنتي التي تعود بها من الحضانة، خصوصًا تلك الرسمة التي أبهرتني ألوانها منذ أيام قبل أن أقترب من الكراسة وأكتشف أن ما ظننته تطورًا لونيًا مبهرًا كان عدم المؤاخذة إفرازًا أنفيًا سببه إصابتها بالرشح.

للأسف لم يتسن لي من خلال الحلقة أن أعرف آراء فنانين أحبهم مثل يسرا ومحمود عبد العزيز ومحمود ياسين وأحمد السقا في لوحات الوزير، مما جعلني أخمن أن تأثير اللوحات كان قويًا عليهم، ففضلوا مغادرة المعرض فورًا والاختلاء بأنفسهم في مكان مظلم حتى لا تضيع الشحنة الشعورية التي «لقطوها» من اللوحات، ولذلك قررت منحهم بعض الوقت حتى تهدأ مشاعرهم ثم أتصل بهم لكي أستزيد وأستفيد، مكتفيًا حتى حين بالاستنارة بآراء الفنانين الذين سجلت معهم بوسي، وعلى رأسهم النجم الكبير عزت العلايلي، الذي كان يقف أمام لوحة للوزير تشبه «جيبة» كحلي اندلقت عليها كوباية سحلب قبل أن ينقعوها في حلة قلقاس، ومع ذلك فقد اعتبرها أهم لوحات المعرض دون أن يمنحه مقص المونتاج وقتًا لشرح أهمية الجيبة المنشورة خلفه. الجميلة لبلبة قالت وهي تحدق سارحة في فراغ المعرض «مش عارفة.. كل ما أبص للوحة ألقط منها إحساس آجي أشوف لوحة تانية يتغير إحساسي باللي فاتت وأحس بمعنى تاني»، عن نفسي حاولتُ تَمَثُّل إحساسها فاكتشفت أن إحساسي باللوحات كلما أعيد عرضها لم يتغير، وهو أنها جميعًا محض هراء.

التمست تفسيرًا لإحساسي لدى النجمة إلهام شاهين فاكتشفت أن لها خلفية ضخمة فيما يخص الفن التشكيلي، عندما قالت بثقة مذهلة اقشعر لها بدني «على مستوى العالم كله اسم فاروق حسني من أهم الأسماء في الفن التشكيلي.. شيء جميل ومشرف لينا.. باستمتع بشغله.. بيبقى محتاج حالة خاصة من التأمل.. والعين لازم تدرسه وتفهمه»، ثم تأكدت لي جنايتي على الوزير عندما سمعت

سيدة المجتمع عواطف سراج الدين تقول بصوت متهدج «كل سنة سيادته بيضيف للألوان بتاعته بس السنة دي البرتقاني والأزرق ظاهر في الألوان.. السنة اللي فاتت كان الأسود والأحمر.. بصراحة مفيش حد في الدنيا عنده وزير ثقافة فنان غيرنا»، ولأني لن أفهم في الثقافة أكثر من السيدة عواطف استعذت بالله من الشيطان الذي أراد أن يحبكها في الحتة دي، وقررت أن أرى معرض الوزير بعيني الجميلة ليلى علوي التي قالت بتأثر بالغ «في حدّة السنة دي في الخطوط، الأصفر مع الجرين محسسيني إن في شحنة انفعال، في لوحة في الأودة التانية فيها بقعة أورانج لما شفتها حسيت إني باطلّع شحنة ثورة من جوايا»، أقسم بالله أنني لو لم أكن أشاهد البرنامج في الثانية فجرًا لنططت من قلب الشقة إلى أقرب تاكسي ليأخذني إلى الأودة التانية في المعرض لأحتفظ بما تدلدق على الأرض من شحنة ثورة ليلى علوي، وشوف بقى شحنة الثورة المندلعة من جوّه ليلى علوي تسوى كام في السوق، بالتأكيد ستساوي أكثر من سعر لوحة الوزير الفنان التي كشف فنان الكاريكاتير رمسيس أن لوحة رسمها الوزير في برنامج معه على الهواء، يعني بطراطيف أصابعه، بيعت بمائتي ألف جنيه حتة واحدة.

الأستاذ رمسيس ختم شهادته التاريخية عن معرض الوزير بقوله «يا سلام عليك يا فاروق لما تروق»، أما أنا فأختم بشهادة الفنانة عبير صبري التي لم يخف على فطنتها أن اللون الأسود كان ظاهرًا للعيان في اللوحات، مما جعلها تطلق تساؤلًا وجوديًا عما إذا كان وراء ذلك مغزى خاص، لكن بوسي فرملتها لكي لا تورط الوزير في معنى لم يقصده، فقالت لها إن سيادة الوزير قال إنه «بيتفاءل باللون الأسود»،

وبما أنني أعرف المعلومة للمرة الأولى، فليسمح لي سيادة الوزير أن أشاركه تفاؤله دون أن أسأله عن مبررات، لأقول له «يجعلها سنة سودا على سيادتك يا فندم».

شِلخُ زَنبَقٍ أنا!

ظن سائق التاكسي أن مسًّا أصابني. كنت قد انخرطت في نشيج حادٍّ مفاجئ عندما انبعث من إذاعة الأغاني صوت دخله موسيقى أغنية «أشكي لمين» لآخر ملوك مصر محمد منير. السائق لم يتعاطف معي أبدًا، ربما لأنني أحبطت خطته لكي يسبقني بالبكاء طمعًا في زيادة الأجرة، بادرني بصوت ينضح عدوانية «باقولك إيه يا شقيق.. الأفلام دي إحنا اللي بدعناها.. هتقولي أصل أمي حاجزينها في مستشفى الصدر وعليها فلوس.. مابتاكلش معايا الحوارات دي.. يا ريت تطلع الأجرة من دلوقتي عشان أنا مش حمل مناهدة واللي فيّا مكفيني».

لو قلت له إنني أبكي لأن صاعقة منيرية ضربت روحي، لوقعت في شر أعمالي، ولو قلت له إنني أبكي لأنني اكتشفت سكة جديدة إلى روحي، للفظني من التاكس مرميًا غير مأسوف على أجرتي، إذن سأبكي وأغني وبفلوسي، استقرار العشرينانية في جيبه كان كافيًا لجعله يتسامح مع انطلاق عقيرتي بالغناء المختلط بالنهنهة «هما يومين.. مش دايمين.. مكتوبين علينا.. نقضي ساعات فرحانين

وساعات بتبكينا.. لينا أحلى أمانينا.. ليه الزمان يجرح قلوبنا.. جينا ومادين إيدينا.. واللي يصيبنا أهوه من نصيبنا.. دنيا بتلعب بينا ليه.. إيه راح ناخد من ده إيه»، كنت أغني والسواق يسحب نفسه ليلتصق أكثر بباب التاكسي، محاولًا الهروب من وساوسه بأن خطوتي القادمة لا ريب إشهار مطواة في وجهه وسرقة الإيراد والعربية.

الأغاني سكك إلى الروح، ومنير وفيروز يحتكران ثمانين في المائة من سكك حديد روحي. إذا كان بين قراء هذه السطور جلاد مستقبلي، فليأذن لي أن أنصحه، إذا قُيِّض لك أن تعذبني يومًا ما لكي تنتزع مني اعترافًا ما، رجاء لا تتعب نفسك وتلجأ إلى الضرب فأنا متعود عليه من صغري، عليك بالكهرباء فإذا كانت مقطوعة فعليك بأغاني منير وفيروز وستضمن توقيعي على أي اعتراف تريده فورًا.

غناء منير وفيروز شفاء للأرواح وعذاب مقيم لها في آن واحد. أنا وأبناء جيلي كبرنا لنجد منير في البيت فأحببناه، أما فيروز فنحن الذين ذهبنا إليها برجلينا ولم نعد من ساعتها. في سنوات المراهقة كتبت بتأثير إدماني لسماع فيروز قصائد كثيرة عن السنونو والزنابق والليلك والعوسج والنطر والمفارق. في إعدادي كتبت قصيدة تقول «ثغرك ليلك أرشفه بثغري»، استقرت القصيدة في جيب بنطلوني أسبوعًا دون أن تذهب إلى الأنثى صاحبة النصيب، لأن الأنثى الوحيدة تحت العشرين في حياتي وقتها كانت كلبة، وهذا اسمها وتوصيفها معًا، فهي كلبة الجيران الذين رأوا أنها لفرط حقارتها لا تستحق إطلاق اسم عليها غير كلبة، لذلك استقرت القصيدة في جيبي حتى وقعت في يد أمي وهي تفرغ بنطلوني للغسيل، قرأت فلطمت فشخطت ثم عضّت ظاهر يدي مكانها المفضل للعَض، ثم لطمت تارة أخرى، ثم

قالت لي قبل أن تعضني تارة أخرى «ليلك سودا على دماغك يا عديم الربابة إيش حال لو ما كناش حفضناك كتاب ربنا»، رد فعل أمي كان عدوانيًّا ليس لأنها لم تتصور أن ابنها يستخدم ثغره في شيء غير الأكل والشرب وتقبيل يدها بل لأنها ظنت أن الليلك كلمة قبيحة.

منذ تلك العضة اختفى أي وجود للسنونو والزنابق والليلك في حياتي، أما الشعر نفسه فاختفى من حياتي عندما قرأت محمود درويش الذي عضني في باطن وجداني عضة علمتني أنه إذا لم يكتب الإنسان شعرًا كهذا أو أفضل منه فالأحسن أن يتلهى خالص.

الزنبق الوحيد الذي لا زال يبكيني حتى الآن هو الزنبق الذي تغنيه فيروز في أغنيتها الشهيرة «شِلح زَنبَقٍ أنا». مع أنني لم أعرف أبدًا ما هو شِلح الزنبق ولا كيف يمكن أن يكون الإنسان شِلح زنبق، لكنني من خلال السمع جزمت أنه أمر يبعث على الحزن أن يكون الإنسان شِلح زنبق.

أيام الجامعة أقنعت صديقًا لي بهذه النظرية فقرر استخدامها مع بنت قرر اشتغالها بسكة الشاعرية الحزينة لعله يقطف ليلك ثغرها، عاش طويلًا في دور الزنبق المشلوح وفي يوم «الڤالانتاين» اختلى بفتاته بين محاضرتين عند فسقية الكلية، ودون أن يُقَدِّم لنفسه، سبّل عينيه وطفق يغني «شلح زنبق أنا»، وفجأة توقف عن الغناء وجحظت عيناه على دوي قلم نزل على خده ولعلع، قبل أن تتف عليه وتقول له «يا واطي ياللي ما اتربيتش»، كل ذلك لأنها ظنته يدعوها لكي تشلح من أجل أن يزنبقها، هداها الله وإياكم.

عزيزي الشاب: لا تلعن الظلام.. إلعن الشمعة!

عندما كنت شابًا في سن الضياع كان أكثر ما يغيظني ويحرق دمي وأنا أقرأ تلك المقالات المحشوة بالنصائح التي كان يسديها كبار الكتاب لنا نحن الشباب الذين لا نحب بلدنا كما يكفي فينصحوننا بأن نتذكر بأن نشعل شمعة بدلًا من أن نلعن الظلام متحسرين على زمنهم الجميل ومقارنته بزماننا المنيل بنيلة والذي أصبح يفزعهم ويخيفهم ويحزنهم ويذكرهم بأيامهم الخوالي ومؤنبين لنا نحن أولاد تلك الأيام بأننا سلبيون وانهزاميون وعدميون ونَفَسنا قصير ونريد النجاح بسرعة وليس لدينا تخطيط للمستقبل وما إلى ذلك من التهم التي كانت تجعلنا نفكر في التوليع في أنفسنا ولكن لأن الانتحار حرام كنا نكتفي بالتوليع فيما يكتبونه.

شوف ربك يا مؤمن ـ أحسبك مؤمنا ولا أزكي على الله أحدًا ـ ها أنا اليوم أصبحت كاتبًا في سن الضياع يطلب مني أن أسدي نصيحة لمن هم أكثر ضياعا مني عندما كنت في سنهم، وها أنت لحكمة إلهية لا نعلمها وضعتك الظروف في نفس المكان الذي كنت أنا فيه، وها أنت تتوقع مني أن أقول لك كلامًا مختلفًا وجديدًا بحكم أنني أعرف

ظروفك أكثر من كبار الكُتاب الذين كنت أنا أقرأ لهم، فأنا قريب منك في السن، يعني بالكثير الفرق بيننا خمس عشرة سنة (وهذه كما تعلم ليست شيئًا في بلادنا العربية التي نحتاج فيها إلى ربع قرن لكي نشعر بضرورة التغيير) وبالتالي فالمفروض أن أعبر عن واقعك خير تعبير وأخاصم كل الأكليشيهات والإستامبات التي يتم رصها في المقالات والأحاديث الموجهة للشباب، هذا هو المفروض، لكنني لن أفعله وسأخذلك وأخيب أملك فيّ إن كان لك أمل فيّ، ستسألني لماذا؟ وسأقول لك لأن هذه هي سنة الحياة في مصر.

هل تريد مني أن أقول لك إنك مظلوم وظروفك صعبة يا عيني ولا أحد يهتم بك ولا يفكر فيك، وإن حالك تصعب على الكافر والمنافق والراسخ في الإيمان معًا، صدقني لو فعلت ذلك فلن تلقي بالًا لما أقوله، لأنك تعرف كل هذا الكلام جيدًا، وستقول لي يا أخي طب ما أنا عارف هو أنا ناقصك، وليس بعيدًا أن تطمع فيما أنا فيه أساسًا فتقول «همّ يعني استكتبوه عشان يقول كلام زي ده.. طب ما إحنا ممكن نقوله»، لذلك لن أعطيك هذه الفرصة أبدًا، بل سأعاملك كما كان الذين من قبلي يعاملونني، سأهريك وعظًا وتبكيتًا وأشبعك تقريعًا وتأنيبًا وأنزل فيك لومًا وتغتيتًا، ولكي أفعل ذلك لا بد أن أبدأه بالديباجة الخالدة التي تقال عادة لأي شاب مصري، وهي أنا أحس إنك منذ فترة لا تحب مصر بالقدر الكافي، وأنك تعاملها بجفاء لم يعد خافيًا على أحد، بل إنني بلغني أنك في بعض الأحيان أثناء جلساتك مع أصدقائك في المقاهي أو الغرف المغلقة تلبّخ في الكلام عنها وتحملها مسئولية ظروفك التي لا تسر الصديق ولا تغيظ العدا، وهذا أمر

في غاية الخطورة لأن مصر كما تعلم بريئة مما أنت فيه براءة الذئب من دم يوسف، وليس معنى أن في حياتك سحابة ستعدي أو لن تعدي أن ترمي بلاءك على مصر وتنسى أن مصر هي أمك وكل من يحكمها هو عمك ونيلها هو دمك ـ أنا آسف إن دمك ملوث قوي كده ـ وشمسها في سمارك وشكلها في أيامك التي ليس لها ملامح ومبيداتها في طعامك ومخالب لصوصها في ثرواتك وتلوثها في خياشيمك وعصي شرطتها في قفاك، لذلك ولذلك كله لو أردت أن يرضى الله عنك فلا بد أن تراجع نفسك بخصوص موقفك من مصر وتخرجها من خلافاتك مع الحياة وتعلم أنك لو أردت أن تكسب أو تربح فلن يحدث ذلك طالما استمرت الضديات التي بينك وبين مصر.

عزيزي الشاب لكي تتمكن من فتح صفحة جديدة في الحياة استعد لكي تسمع مني الكلام المفيد الذي فيه انصلاح حالك وانعدال وضعك وانتشالك من غيابة الجب الذي تقبع فيه، شوف يا سيدي عليك أن تترك السلبية والانهزامية والعدمية لأن كل هذه الأمراض المهلكة تمنع وصول الدم إلى مراكز التفكير في المخ وبالتالي فلن يتغير في حياتك شيء وستظل كما أنت الذي تبات فيه وتصحى فيه، أعلم أن مخاصمة السلبية والانهزامية والعدمية ليست أمرًا سهلًا «آت أول»، وإنها تحتاج إلى إرادة جبارة، ولذلك فالخطوة الأولى للتغيير هي ببساطة أن عليك أن تتحلى بالإرادة، هتقول لي إزاي، اذهب إلى أول فرع لمحلات لابوار، وقل لأول بائع يقابلك «لو سمحت يا عم عايز أتحلى بالإرادة» ولن يقصر البائع معك لأن الزبون دائمًا على حق، صحيح أن لابوار غالي قليلًا وهناك محلات

حلويات أرخص، لكن معلهش لازم تصرف على نفسك قليلًا لو أردت أن يتغير حالك.

الآن وبعد أن تحليت بالإرادة عليك أن تنظر فورًا إلى النصف الملآن من الكوب وتنسى النصف الفارغ الذي لم تكن تنظر إليه أبدًا، آه بالطبع لا بد أن تشتري كوبًا الأول لكي تنسى نصفه الفارغ، وبلاش «مَجّ» لأنك لن تتمكن من النظر إلى نصفه الملآن إلا من الأعلى، وهو ما لا يُعتَدّ به علميًا، لا تستسهل وتأخذ كوبًا من دولاب الفضيات إذا لم تكونوا قد بعتوه بعد، أو إذا لم يكن قد كسره السيد الوالد على رأس والدتك ذات يوم، فأنت لا تعلم كم الشوائب التي علقت بالكوب المستعمل والتي قد تحجب عنك الرؤية الجيدة، لذلك لا تستخسر في نفسك شيئًا واشتر كوبًا جديدًا، وبالطبع املأ نصفه، تسألني بماذا، ليس عندي هنا أي اشتراطات، املأ نصفه بما تحب، فقط عليك أن تختار سائلًا لا تطمع فيه وتشربه عندما تعطش بعد أن تتعب من طول التحديق إلى النصف الملآن، يعني يمكن أن تملأ نصف الكوب ترابًا، أولًا لأنه يذكرك بواقعك أو حتى بأنك من التراب وإلى التراب تعود، كما أنك لن تفكر في سف التراب فيكفي ما تسفه منه بالفعل في حياتك، ولذلك سيستمر نصف الكوب ملآن دائمًا وستستمر في التفكير فيه.

عليك الآن أن تنسى كل السلبيات التي تعيشها في حياتك وأن تفكر بشكل إيجابي تتخير فيه كل الأشياء الحسنة الموجودة في حياتك، لا تقلق سأقول لك كيف، بل سأعطيك خريطة ليومك لو مشيت عليها أسبوع وجيت لي الحد صايم بإذن الله ستشفى من كل ما أنت فيه. شوف يا سيدي بمجرد أن تستيقظ من نومك بفعل

زغدة أمك وهي تقول لك «إنت هتفضل نايم كده.. فزّ قوم شوف شغل يا منيّل»، استجب لزغدتها وانهض من نومك لكن لا تفز من السرير مباشرة بل اعتدل عليه قليلًا وخذ نفسًا عميقًا وأنت متربع في سريرك وابدأ بشكر السماء لأنها أرادت لك أن تستمر يومًا جديدًا على قيد الحياة عليك في هذه البقعة من الأرض التي كانت خيراتها كافية لإشباع ملايين الحرامية والفاسدين على مر العصور، يعني تخيل لو كنت قد ولدت في رواندا مثلًا أو في جامايكا أو في غيرها من البلاد ذات النفس القصير في تحمل السرقة، وما دامت خيراتها كفت كل هؤلاء وبنت لهم قصورًا وفتحت لهم حسابات في بنوك الفرنجة ومنحتهم سيارات وطائرات ويخوتًا وضِياعًا (جمع ضيعة فالضياع الذي ليس جمعًا لشيء هو ما أنت فيه)، إذن فمن المحتمل أن يكون لديها القدرة على أن تمنحك أنت ولو بعضًا من هذا الخير، الإمكانية قائمة يبقى فقط سعيك إليها.

انهض من السرير واذهب إلى المرآة وانظر جيدًا في تلافيف نفسك وتعاريج روحك ستجد بالطبع أن روحك مسكونة بالسواد ونفسك ملفوفة بالظلام، ولا يمكن أن تبدأ يومك بكل هذا الظلام لذلك عليك فورًا أن تشعل شمعة توقدها داخل روحك (توقدها مجازًا بالطبع يا فالح) وبناء عليه ستتوقف عن لعن الظلام وابن الظلام وأم الظلام لأن اللعنة تلف تلف وترجع لصاحبها، وتحملك للسعة الشمعة وأنت تشعلها أفضل بكثير من لسع آخر لن تتحمله عندما يتم التحقيق معك بتهمة العيب في الذات الظلامية، بعدها عليك أن تخرج إلى شرفة بيتك وتفتح زرار قميصك للشمس وللحياة، صحيح أن جارك سيشكوك لأبيك لأنه سيفهم أنك تعاكس زوجته اللعوب،

لكن لا تهتم فأنت تعلم أن نيتك سليمة وأنك تفعل ذلك لأنك لا بد أن تستنشق هواء الحياة قبل أن تقبل عليها بحب وشغف.

من المهم وأنت تبدأ يومًا ستغير فيه حياتك أن تفطر جيدًا بل وأن «تِتَقِّل» في الإفطار من خيرات مصر العامرة التي يملأ والدك بها الثلاجة متجاهلًا الكلام الذي قد تسمعه من السيد الوالد عن اليد البطالة ذات الرائحة القذرة، والثيران التي لا تحس على دمها وهي تحش من الفتة المحلولة، لا تهتم بهذا الكلام وتذكر أن أباك كان يسمعه من جدك وهذا هو الذي صنع منه رجلًا، كُل بقلب جامد فأنت تحتاج طاقة لكي تشعل الشمعة وتمنع نفسك من لعن الظلام، لا تشرب الشاي العادي لأنه مضر للصحة ويقوم بحرق الحديد اللازم لاستكمال مسيرة البناء التي لا بد أن تخوضها، ولذلك ركز مع الشاي الأخضر أو الإيرل جريي، البس أشيك ما لديك من ملابس وضع أفضل ما لديك من عطر واختر تسريحة مليئة بالتفاؤل، وحاول تجاهل تعليقات والدتك وهي تقول لك «على إيه يا حسرة اللي يشوفك يقول الواد رايح البورصة»، لا تعتبر ذلك إهانة، هي مجرد دعابة، ولا تلم والدتك لأنها توقفت عن الدعاء لك علنًا بزعم أنه مش جايب همه، فهي بالتأكيد تدعو لك سرًّا.

وأنت تخرج من باب العمارة خذ نفسًا ودع القلق وابدأ الحياة، وادخل برجلك اليمين سوق العمل، وكن على ثقة أنك ستجد الفرصة الملائمة لكي تساهم بجهودك في دفع عجلة الإنتاج، ولكي يطمئن قلبك اشتر أول صحيفة قومية - أي واحدة ما تفرقش كلهم شبه بعض - واقرأ وأنت ملتحم بإخوتك المواطنين في الميكروباص مقالات كتابها التي ستهنئك على أنك تعيش في أزهى عصور الديمقراطية

والتنمية والبنية التحتية والاستثمار والإنتاج، صحيح أن قراءة هذه المقالات ستحدث أثرًا عكسيًا لديك وستفكر في العودة إلى البيت بعد أن شعرت أن البلد زي الفل ولا تحتاج جهدًا إضافيًا منك، لا، أنت مخطئ فليس معنى أننا وصلنا إلى أزهى عصور التنمية أنه ليس هناك ما هو «أزهزه»، وليس معنى أن الخير يملأ البلد ألا تغرف أنت منه شخصيًا، عليك فقط أن تختار الحتة التي ستغرف منها، خاصة وفرص العمل المتاحة للشباب على قفا من يشيل، يعني عليك أن تختار ما يناسب قدراتك الشخصية من بين أكثر المهن نجاحًا وبريقًا وتألقًا، تحب أن تكون عضو لجنة سياسات أم فتى فيديو كليب أم لاعب كرة مشهور أم نجم كوميديا أم مستثمر صغير أم مالك أراضٍ صغير أم شاب من الذين يظهرون خلف المسئولين في الخطابات الرسمية مشرقين بالتفاؤل مملوئين حتى التخمة بالأمل، فكر جيدًا واختر ولكن لا تنس دفع أجرة الميكروباص لكي لا تتلطش أثناء سرحانك في الاختيار.

ستنزل من الميكروباص إلى الواقع الفعلي الآن، وستجد أن كل ما حلمت به صعب التحقيق مؤقتًا، فلا تيأس، حاول أن تختار من بين المتاح، صحيح أن المتاح هو مطلوب بائعة حسنة المظهر وذات خبرة، أو مطلوب سكرتيرة ممشوقة القوام أخلاقها سياحية، أو مطلوب مندوب مبيعات مستغني عن رجليه وصحته وعمره، أو مطلوب جاسوس لجهاز مخابرات دولة صديقة، أو مطلوب شاب هتّيف لزوم مؤتمر مبايعة، وكلها مهارات قد لا تتوفر فيك، لكن لا تيأس، اجلس واسترح قليلًا على القهوة، لكن إوعى تسأل القهوجي عن شاي أخضر، لن يفهمك فهو جاهل، زي بعضه اشرب شاي

سيلاني خفيف، وَعُد لقراءة الصحيفة القومية لكي تعطيك بعض الأمل الذي يساعدك على تبليع اللقمة التي ستأكلها على القهوة.

لا تنس موعدك مع فتاة أحلامك على الكورنيش في الساعة الخامسة، اذهب إليها وأنت مشبوب العاطفة مشرئب الأحلام وحاول أن تنسى كلامها عن «وبعدين ولحد إمتى، وابن خالتها اللي جاي من مسقط ومتقدم لها، والخطوة الجدية، والنيش والصيني وطقم الجيلي»، إنس كل ذلك واقرأ لها مقالات الصحيفة القومية لعلها توسع من أُفُقها، وتدرك أننا في لحظة حرجة من المفروض أن نتكاتف فيها جميعًا لكي نلحق هلال المستقبل قبل أن يتحول إلى محاق، إذا شتمتك وتركتك فلا تبتئس، فأنت لست في حاجة إلى فتاة انبطاحية مثلها، سيرزقك الله بست ستها من حيث لا تدري، وستلتقي يومًا بها وأنت خارج من مطعم البومبادور في النيل هيلتون وأنت تضع الفرو على كتفي زوجتك ملكة جمال روكسي وستكون حبيبتك القديمة وقتها تمسح بلاط الأوتيل ودموع الندم ستنهمر من عينيها لتفسد ما مسحته وتعود لمسحه من جديد.

حاول أن تتأخر في العودة إلى البيت لكي لا تسمع نفس الكلمتين اللتين سمعتهما في الصباح، اقض الوقت مع بعض أصدقائك المتشائمين وحاول أن تكسب فيهم ثوابًا وتشرح لهم أهمية أن يتمثلوا قول الشاعر «لو بتحبوا البلد دي خلوا عينكم عليها»، وبدلًا من أن تلعبوا دُمُنَة عادة أو كوتشينة شلح اقضوا الوقت وأنتم بتخلوا عينكم على مصر لكي تحبوها أكثر، لكن حاذر أن يسرقك الوقت وتتأخر في السهر فلديك في الغد مسيرة بناء جديدة لا بد أن تشارك فيها، اترك زملاءك يدفعون الحساب عملًا بقول الشاعر «لو كنا بنحبها

لازم نصون حبها»، ووصيهم خيرًا ألا يشيلوا عينهم من على مصر وينظروا لأي بلد أخرى، واتجه نحو بيتك، ادخل على طراطيف صوابعك لكي تتجنب التهزيء، غيِّر ملابسك وأرح جسدك المهدود من فرط الأمل، وقبل أن تغمض عينك وتروح في النوم اشكر الله على نعمته عليك واشكر حكام مصر على كل ما أسدوه إليك من صنائع وتذكر أن أول ما يجب أن تفعله في الصباح الباكر هو الذهاب إلى الحلواني للتحلي بمزيد من الإرادة التي قاربت على النفاد.

فين جواسيس زمان يا جدع؟

ليس غريبًا أن نفشل في الحصول على المركز الأول في الفشل، ونأتي في المركز السادس والثلاثين بين دول العالم الفاشلة. فكل شيء لدينا تدهور مستواه، حتى الجواسيس.

زمان كان للجاسوس شنة ورنة، تدفعك للعنه من كل قلبك لأنه خان بلاده، اليوم أنت تلعن الجاسوس وأنت تسخر من منظره وهزال بدنه، زمان كنا نسمع عن الجاسوس الذي خان الوطن لأنه سقط في فخ الحسناوات اللواتي أكلن بوطنيته حلاوة، ثم جاء اليوم الذي ننتظر فيه نتيجة الكشف الطبي على جاسوس متهم بالشذوذ لنعرف هل الأخرام التي في أذنه طبيعية أم بفعل فاعل.

ونحن نشاهد فيلم بئر الخيانة كنا نتميز غيظًا ونحن لا نصدق أن الفيلم مأخوذ من قصة حقيقية لمصري تجرد من كل مشاعر الانتماء وسخر ذكاءه الحاد لضرب وطنه في مقتل، اليوم نتميز غيظًا من العبط الذي يكسو وجه جاسوس هيئة الطاقة الذرية متذكرين غصبًا عنا الدور الذي لعبه المرحوم فؤاد المهندس في فيلم «أخطر رجل في العالم»، كنت أشعر أحيانًا وأنا أرى الجاسوس ضاحكًا أمام عدسات

المصورين أنه سيقفز إلى أقرب كرسي ويغني «أنا واد خطير أيوه خطير»، وعندما أصدرت المحكمة حكمها عليه توقعت أن ينهار باكيًا لاطمًا لكنني فوجئت بفشخة ضبه لم تبرح مكانها فخفت أن يحتضن محاميه بسعادة صارخًا «هييه.. أنا خنت مصر».

عندما شاهدنا الجاسوس العجيب في أول ظهور له قال الكثيرون «بالذمة ده منظر جاسوس»، ربما لأن ذاكرتنا عن الجواسيس التي صنعتها أفلام جيمس بوند وروايات المرحوم صالح مرسي، تأبى إلا أن ترى الجاسوس طول بعرض بعيون حادة الذكاء وملامح غارقة في السيكس آبيل. يومها سمعت بأذني هاتين في شارع القصر العيني جزمجيًا يقول لزبون هيبة «بصراحة يا باشا لو إسرائيل بقى ذوقها في الجواسيس كده يبقى نهايتها قربت»، ضحكتي التي تفجرت أربكت الاثنين وألزمتهما الصمت فورًا، الجزمجي قال فور أن استلم قدمي اليمنى «ينصر دينك يا بلد.. جاسوسين في شهر.. كده الواحد ينام وهو مطمن». ثم مرت الأيام وسقطت كل الشائعات عندما تم نشر اعترافات الجاسوس التي أبدلت مشاعر السخرية منه بمشاعر كسوف كلي على ما وصلنا إليه من إهمال وتسيب لم يسبق لهما مثيل.

لم يترك الجاسوس لنا فرصة لكي نلعنه على جهده الجبار في اختراق شفرتنا النووية، ولم يكمل فرحتنا بقلق إسرائيل من برنامجنا النووي الذي نشتغل عليه في التوب سيكرت، قلنا لأنفسنا إذن ما ذُلُّنا وخضوعنا إلا غطاء حاذق نتمسكن به إلى حد ما نتمكن، ثم اتضح أن الجاسوس لم يبذل مجهودًا خارقًا ولا نيلة في اختراق شفرتنا العتيدة، كل ما في الأمر أنه كان يتدرب على الكمبيوتر، فوجد نفسه فجأة وقد دخل على برنامج المفاعل النووي السري، وعندما أسقط في يده

ذهب إلى رؤسائه لينبههم ويعرض عليهم المساعدة في إصلاح ما حدث، حلقوا له فاستشاط غيظًا وقرر أن يبيع ما وقع تحت يده من أسرار لأناس لا يحلقون له، أي أنه لم يكن سوى جاسوس بالصدفة أو بالخيبة بمعنى أصح. بالمناسبة هو يدعي أنه كان يتدرب على الكمبيوتر مع أن إحساسي الذي لا أمتلك عليه دليلًا سوى تعبيرات وجهه أنه ربما كان داخلًا على الشات مع أسترالي رقيع قام باشتغاله على أساس أنه حسناء كاعبة، ولما انكشفت الاشتغالة ضرب لوحة المفاتيح غاضبًا فوجد نفسه إذ فجأتن داخل البرنامج النووي.

أعترف لكم أنني تعاملت مع ما قاله فاشخ الضب باسترابة إلى أن قرأت قرار النيابة العامة بإجراء تحقيقات لكشف القصور الفاضح الذي أدى إلى ما حدث، فحمدت الله لأن أحدًا في هذه الدولة تنبه لخطورة ما حدث. وقلت لنفسي رب ضارة نافعة، ولعل نافعة هذه الضارة أنها غَيّرت تصور المصريين للجواسيس، بدليل ما أشيع عن ما جرى لعم ذهني أشهر عبيط ضاحك في المنيرة، كان الناس يعاملونه على أنه بركة وبتاع ربنا، وبعد واقعة الجاسوس أبو ضحكة هطلة ثبّته مواطنون غيورون وفتشوه ذاتيًا متحملين رائحته النتنة، فلم يعثروا معه على ميكروفيلم أو سيديهات بل على ألف وستميت جنيه اعترف بعد تعرضه للتعذيب في أماكن حساسة أنها أموال وطنية حصل عليها من مجهوده طيلة أسبوع في التسول وبيع البانجو.

الواد وأبوه

منذ أن سمعت هذه القصة وأنا أجدني مضطرًا لحكيها لكل من أعرف وإعادة حكيها له كلما تطلب الأمر.

القصة أمريكية لكنها تخصنا أكثر مما تخص الأمريكان. بطلها تيدي طالب في المرحلة الثانوية في إحدى مدارس ولاية تكساس ينتمي إلى عائلة ثرية معروفة بتأييدها للحزب الجمهوري الذي يحكم أمريكا الآن والذي لطالما حكم تكساس نفسها لسنوات طويلة، فجأة قرر الابن تيدي أن يعلن انتماءه للحزب الديمقراطي الذي شعر بالانتصار لأنه خطف ابن واحدة من العائلات الأمريكية مفرطة الجمهورية، والد تيدي شعر بالخيانة بسبب ما فعله ابنه الذي فضحه وسط أصحابه في الحزب فقرر أن يمتنع عن دفع نفقات الجامعة التي كان سينتقل ابنه إليها في العام المقبل، فجأة تحول الأمر من خلاف عائلي خلف الأبواب المغلقة إلى قضية تشغل بال أمريكا، هل من حق الابن أن يخرج على الانتماء السياسي للعائلة في مجتمع محافظ مثل تكساس لا زال الانتماء العائلي يشكل فيه عاملًا مهمًا جدًا، بدأ الأمر عندما استضافت أشهر محطة إذاعية

في تكساس الأب والابن في مواجهة سياسية على الهواء ليتحدث الابن عن سر اختياره لانتماء سياسي جديد، ويتحدث الأب عن صدمته هو وعائلته في الابن الذي خان مبادئ العائلة وأنه يعتبر قراره بعدم دفع نفقات تعليم ابنه أبسط رد على قرار الابن، انهالت المكالمات على البرنامج تؤيد الابن وتحثه على المضي في قراره وتهاجم الأب النتن طالبة منه ألا يستخسر في ابنه نفقات التعليم، ألقى الابن في البرنامج بمفاجأة من العيار الثقيل عندما قال إنه لا يريد من أبيه أن يدفع نفقات تعليمه وأنه ليس بحاجة إلى ذلك، كيف إذن ستكمل تعليمك يا تيدي وأنت الذي تحلم بدخول هارفارد أو ييل وكليهما من أغلى وأرقى جامعات أمريكا، قام تيدي بطل المصارعة في مدرسته بتأسيس موقع على شبكة الإنترنت يحكي فيه قصته ويروج فيه لمبادئه المناهضة للحزب الجمهوري والمؤيدة للحزب الديمقراطي ويطلب من الذين يقتنعون بقضيته أن يساعدوه على دفع نفقات تعليمه من خلال التبرع له بمبالغ مالية يحصلون مقابلها على إعلانات في الموقع، في خلال أيام معدودة تمكن تيدي من جمع أربعة آلاف دولار من مناصريه الذين كان على رأسهم جدته أم والده التي قررت أن تنحاز لحفيدها ضد ابنها.

المثير في الأمر أن تيدي لا زال يقيم في منزل والده الذي لم يصعد الأمر واكتفى بعقوبات اقتصادية على نفقات التعليم لا على «المم» والنوم، في برنامج «إنسايد إيديشن» الجميل شاهدت الأب والابن وهما يجتمعان في مطبخ منزل العائلة في مماحكة سياسية يتحدى فيها الابن أباه من أنه واثق من أنه سيتمكن من إقناعه بتغيير انتمائه السياسي، بينما يؤكد الأب أنها نزوة وستنتهي، فيما تحاول

الأخت الصغيرة أن تقنع أخاها بأن يعيش عيشة أهله الجمهوريين، انتهى التقرير البديع بلقطة للأب والابن يتصارعان سويًا وهما يؤكدان للبرنامج أنهما برغم خلافاتهما السياسية لا زالا أعز صديقين وأن السياسة لن تتمكن من تدمير محبتهما لبعضهما البعض.

هل تبدو هذه حكاية عائلية تافهة؟ لا أعتقد على الإطلاق، هل تبدو قصة أمريكية محلية بعيدة عن الهم العام لنا في مصر؟ أبسوليتلي، بالعكس أعتقد أن هذه الحكاية تدخل في صلب مأساتنا السياسية والاجتماعية، بل أحب أن أبالغ فأقول إن أحوالنا لن تنصلح إلا لو تمنى كل منا أن يكون لديه ابن مثل تيدي، وإن الله تعالى لن ينفخ في صورتنا إلا لو توقفنا جميعًا عن تلك المقولة اللعينة التي نقولها في معرض المدح والفخر بأبنائنا «يا رب تطلع زي أبوك»، وهي مقولة ربما لو تخلصنا منها بداخلنا لما ظهرت لدينا يومًا ما مشكلة التوريث، التوريث أيًا كان في أي مكان صحرا كان أو بستان.

هنا دعونا نسأل أنفسنا متى يمكن أن نشهد في بلادنا قصة مثل قصة تيدي؟ لا تقل لي «ودي تيدي»؟ بل دعنا نتخيل الأوساط السياسية وهي تهتز يومًا ما عندما ترى جمال مبارك وقد قرر أن يتمرد على أبيه الرئيس مبارك ويقرر الانضمام لحركة كفاية أو حتى إلى حزب الوفد مثلًا سواء كان وفد عماد الدين أو وفد بولس حنا أو حتى وفد سمنود، هل يمكن أن نرى زهراء خيرت الشاطر تعلن عن انضمامها إلى حزب الوسط تحت التأسيس معلنة أن جمود جماعة الإخوان المسلمين أصبح عبئًا على البلاد والعباد؟ وهل يمكن أن نرى ابن الحاج أحمد الصباحي وهو يستنكر إصرار والده على ارتداء الطربوش، لا أهزل ورب موسى وفرعون بل أتحدث جادًا وأسأل ملحًا: ما الذي يمكن

أن يحدث لو قرر ابن أحد الشخصيات الحكومية البارزة لدينا أن ينضم إلى حزب معارض أو حركة احتجاجية أو ينتقد أباه عيانًا بيانًا، هل سيحظى بتقدير أحد أو تشجيعه، أم ستنهال عليه اللعنات من كل حدب وصوب وتتهمه بعقوق الوالدين وبقلة الأدب والخروج على الأعراف والتقاليد والقيم، وهل يمكن أن يتبرع أحدنا لابن لو قرر أن يفعل ما فعله تيدي، أم أننا سنتبرع جميعًا بتذكيره بالعيب والأصول والحرام وأحسن ييجي في عيالك ويحط عليك، لماذا يسير الأبناء في بلادنا دائمًا في ركاب آبائهم سواء في السياسة أو البيزنس أو حتى في الذهاب إلى صلاة الجمعة، لماذا نسحق دائمًا تفرد أبنائنا وتميزهم ونفرح باتفاقهم معنا أكثر من اختلافهم معنا، لماذا نخلط دائمًا بين بر الابن بأبيه وبين تحوله إلى نسخة باهتة من أبيه، وهل أساء الآباء في بلادنا تفسير نصوص دينية مثل «وبالوالدين إحسانًا» أو «أنت ومالك لأبيك» لكي يمارسوا قمعا أبويًا على أبنائهم ينتهي بتحول أبناء الناجحين عادة إلى نسخ مشوهة منهم، وهل من بر الوالدين أن نسلم دائمًا بأنهم على حق، وهل آباؤنا دائمًا على حق، وإذا كان يمكن للأب أن يكون على حق لأنه قرر أن يحرم الأم من مصروف البيت أو أصدر فرمانًا بإلغاء التصييف في جمصة، هل يكون على حق وهو يعيث في الأرض فسادًا أو وهو يأكل مال النبي والصحابة أو وهو يصدر أمرًا بضرب المتظاهرين العزل أو التحرش بالصحفيات وحبس الصحفيين، أليس حرامًا السكوت على ما يفعله أب كهذا من باب إنكار المنكر، وهل يمكن أن يكون تيدي الأمريكاني أقرب منا نحن منتسبي الإسلام إلى مفهوم بر الوالدين؟

بالطبع ليست كل هذه الأسئلة تحريضًا على عقوق الوالدين

ولا لقتل الأب على الطريقة الحداثية، بقدر ما هي دعوة لاستغلال الخوف من وباء إنفلونزا الطيور لنغلق على الفور كل مزارع الدواجن التي نفتحها جميعًا في بيوتنا، ونفرخ من خلالها أجيالًا من الدواجن لا تهش ولا تنش ولا تتمرد ولا تشاغب ولا تعترض ولا تكاكي إلا بما يوافق هوى بابا.. صاحب المزرعة.

.. ولا الخيال العلمي!

كان المنتج القادم حديثًا من الخارج يحدثني بعينين لامعتين عن أحلامه في إنتاج سينما مصرية مختلفة تحفل بأفلام الخيال العلمي والرعب والسايكو دراما والسسبنس (نطقها هكذا وعندما قلت له قصدك التشويق فقال لي لأ.. السسبنس) لعلنا نقهر سطوة الأفلام الكوميدية والاجتماعية والرومانسية التي يرى أن الناس ستملها قريبًا مهما تم تجويدها.

استمعت إليه بصبر واهتمام ثم حمدت الله وأثنيت عليه وصليت على حضرة النبي، وقلت له إنني أقدر حماسه الهائل وأتمنى له كل التوفيق طالبًا منه مهلة كافية للتفكير في معالجات سينمائية في أحد الفروع التي أشار إليها وكلها فروع شديدة الصعوبة تحتاج إلى معالجات نابعة من صميم الواقع المصري لكي يصدقها المتفرج، قبل أن أكمل كلامي قاطعني قائلًا «إحنا لسه هنفكر.. ما عندنا الأفلام العالمية اللي نجحت حتى في مصر.. ليه مانقتبسهاش؟»، افترضت فيه حسن النية لأنه لا يعرف على ما يبدو أن ضرب الأفلام الأجنبية تحت اسم الاقتباس شغال على ودنه طيلة تاريخ السينما المصرية

من أيام الرواد إلى أيام الأحفاد، ثم قلت له «لست معك تمامًا فيما ذكرته مع احترامي لرغبتك المخلصة في التجديد.. فأنا لا أرى أن في الحياة المصرية سسبنسًا من أي نوع لأن كله على عينك يا تاجر.. ولو حدثت سرقة ملغزة يستطيع الضابط أن يحل غموضها في يومين بتوصيل الكهرباء إلى مؤخرات جميع المشتبه بصلتهم بالحادثة أو العدم مشتبه بهم.. ولا يمكن أن تكون لدينا أفلام تشويق سياسي كالتي برع فيها الراحلان سيدني بولاك وآلان چي باكولا مثلًا لأن الناس في مصر تعرف جميع الحرامية بالاسم وتتفرج عليهم في نشرات الأخبار، وربما كان السسبنس يكمن في محاولة الإجابة عن سؤال لماذا يسكت الناس ويطرمخون على الحرامية؟ ثالثًا الرعب في العالم ليس رعبًا واحدًا ولكل رعب هو خائف منه.. فربما يصاب المواطن الأمريكي بالرعب من بيت مسكون أو غابة ملبوسة.. بينما يصاب المواطن المصري في ناهيا بالرعب من كمين شرطة.. ويصاب البائع المتجول بالرعب من كبسة تموين.. ويصاب الموظف المصري بالرعب من نص الشهر.. ويصاب الزوج المصري بالرعب من زوجته وهي صاحية من النوم.. يعني أسباب الرعب تختلف.. لكن على الأقل الأمر يستحق التفكير والإبداع والبحث عن شكل خاص للرعب المصري في أيامنا التي فقدنا فيها الدهشة من كل شيء.. أما حكاية الخيال العلمي فاسمح لي هذه بالذات ستتحول إلى أفلام ضحك «سريخ» بمجرد صناعتنا لها.. يعني كيف نتتج نسخة مصرية من حديقة الديناصورات بينما نحن لا نستطيع أن نصور في حديقة الملك الصالح قبل أن نحصل على تصاريح من ثلاث وزارات مختلفة.. بلاش تخيل لو قررنا أن

نحذو حذو أهم أفلام الخيال العلمي على الإطلاق «العودة إلى المستقبل» للمخرج المبدع روبرت زيميكيس والذي بلغ شأوًا من النجاح في العالم جعلهم ينتجون منه ثلاثة أجزاء كلها كسرت الدنيا، تخيل أننا لو قررنا أن نجعل بطل الفيلم المصري يحذو حذو البطل الأمريكي فيرجع ربع قرن إلى الوراء بفعل اختراع آلة الزمن التي سنفترض أن عالمًا مصريًا يسكن في أرض اللواء صنعها بعون الله وببركة دعاكي يا امّه.. لكن في الفيلم الأمريكي شعر البطل مايكل چي فوكس بصدمة حضارية عندما عاد ربع قرن إلى الوراء برغم أن الفيلم أنتج في الثمانينيات.. ولم يكن التقدم العلمي قد وصل إلى حده المرعب الذي وصل إليه الآن.. طيب قل لي بالله عليك ما الذي سيجده بطل فيلمنا مختلفًا في مصر عندما يعود إلى الماضي ربع قرن؟! سيجد مصر يحكمها نفس الرئيس بدون نائب.. وسيجد قرينة الرئيس تفتتح مكتبة جديدة للطفل.. سيجد كمال الشاذلي وصفوت الشريف ومفيد شهاب وآمال عثمان وفتحي سرور متصدرين الساحة السياسية لا أرباب معاشات يتشمسون في ساحات الأندية.. سيجد كوبري ستة أكتوبر «واقف» كما هو، وإعلام ماسبيرو «نايم» كما هو ونشرة ستة تذيع استقبالات السيد الرئيس، ومانشيتات الصحف القومية التي تتحدث عن عظمة الرئيس القائد وسماع العالم لحنكته السياسية.. سيجد مذيع الكرة يشكر رجال الأمن ويبعث ألف شكر للسيد الرئيس راعي الرياضة والرياضيين.. سيجد المجتمع يطحن في بعضه جدلًا هو هواه حول الأصالة والمعاصرة والهوية والحداثة والعلمانية والإسلام هو الحل.. سيجد الصحف تطالب بتعيين نائب للرئيس وإلغاء قوانين الطوارئ وتفعيل دور الأحزاب وعدم حبس

أصحاب الرأي والفكر وتتساءل هل نعطي الإخوان حزبًا أم نسحلهم في السجون.. سيجد مصر كما هي على حطة إيد اللي خلفوه.. لم تخترع اختراعًا علميًا واحدًا يرفع رأسها بين الأمم.. لم تنتصر إلا في ملاعب الكرة كل حين ومين.. سيجد الناس يشكون من الغلاء والكوا والزحمة وخراب الضمائر ويحنون إلى زمن الفن الجميل لأن الدنيا خلاص باظت.. سيجد الشباب متلقح على القهاوي ينتظر عملًا.. والبنات يحلمن بواحد عنده شقة ومجهزها.. سيجد الناس تتكلم عن العيب والحرام والأصول والمايصحش وهي تفعل كل المايصحش في حياتها.. سيجد خطباء الجوامع يلعنون الفساد الإعلامي والفني ويدعون على العلمانيين والملاحدة ويسألون الله أن يخسف بأمريكا وإسرائيل الأرض.. سيجدنا كما نحن دائمًا لا شيء يجمعنا ولا هدف يوحدنا ولا حيلة لنا إلا البكاء على اللبن المسكوب حتى دون أن نشربه أو نجففه.. سيجدنا نلعن الظلام ونلعن الذي يشعل شمعة سائلين جاب حقها منين.. خيال علمي مين يا عم الحاج».. فجأة تنبهت إلى أنني على ما يبدو أكلم نفسي منذ مدة.. نظرت حولي فوجدت الرجل خارجًا من الحمام الملحق بمكتبه، قبل أن أعاتبه قال لي «كلامك أثر فيا قوي قلت لازم أدخل الحمام»، كان يتحدث بجدية فلم أدر ما يقصده بالضبط، لم يترك لي فرصة لإكمال الحديث، قال لي «أنا اقتنعت برأيك وهاسيبك تفكر في اللي إنت شايفه صح، وأول ما توصل لحاجة تعالالي عشان نمضي»، لم ينتظر ردي، مد يده مسلمًا بحفاوة، أدركت ضرورة التطريق سريعًا، غادرت المكتب وأنا ألوم نفسي التي أتت بي إلى منتج لا أعرفه، لم أستطع وأنا أغادر أن أخرج من خضم الأفكار الذي قذفت بنفسي فيه،

أخذت أمشي مثقلًا بأفكاري وأنا أتأمل في عبقرية الرئيس القائد الذي فعل ما لم يفعله هـ. ج. ويلز في أغرب رواياته الخيالية حيث حقق إنجازًا تاريخيًا غير مسبوق في العالم عندما فتح الماضي والحاضر والمستقبل على بعض ليصيرا زمنًا واحدًا مباركًا تعيش فيه فكأنك تعيش في الماضي وكأنك تعيش في المستقبل الذي لن يأتي بأكثر مما أنت تعيشه فعلًا. قبل أن أصل إلى باب المكتب سمعت صوت المنتج يقول لسكرتيرته «اطلبي لي اللي بعده في الليستة».

ذات الحذاءين

بالتأكيد أنت تحفظ عن ظهر قلب وقائع موقعة ذات الحذاءين التي دارت رحاها في ساحة المؤتمر الصحفي الأخير للرئيس الأمريكي چورج دبليو بوش، والذي قرر من تغفيله أن يعقده في أرض العراق متصورًا أنها ساحة نصره، فشاء الله ألا تنصرم ولايته الرئاسية إلا بعد ضربه بالصرمة وسط جنوده وحلفائه، لا أدري ما هو أكثر ما استوقفك في كل ما حدث، عن نفسي أكثر ما استوقفني هو درجة اللياقة البدنية المذهلة التي يتمتع بها الرئيس الأمريكي بفضل ممارسته الدائمة للرياضة، والتي مكنته من أن يتفادى بمنتهى المرونة الحذاءين المسلولين اللذين أطلقهما عليه الصحفي العراقي الباسل منتظر الزيدي بدقة في التصويب سيسجلها له خبراء علم المقذوفات حتى يرث الله الأرض وما عليها من مرتدي الجزم.

لو كان الحذاءان المقاومان قد صوبا بهذا الشكل المباغت باتجاه حاكم عربي لرشقا في أم رأسه بكل تأكيد، لأنه لو حاول أن يتفاداهما سريعا لطقّت سلسلة ضهره الذي تصلب من طول ما برَك على كرسي الحكم وكَبَس على أنفاس شعبه، صحيح أن صاحب الحذاء المسلول

لو حاول إطلاقه على حاكم عربي لكان قد تَخَرَّم بالرصاص فور شروعه في سلت حذائه من قدمه، ولما حظي بفرصة إكمال رمي جمرتيه على الشيطان الحاكم، لكن مجرد تلك المحاولة لم تكن لتجعل الحاكم العربي يكتفي بالانحناء ثم الوقوف مبتسمًا باردًا مكبوسًا ومحاولًا تفادي الحرج كما فعل بوش الابن، بل كان فخامة الحاكم المحبوب سينبطح فورًا على أرض منصة المؤتمر وهو يتمتم فزعًا «مش معقول.. مش معقول»، ولأخذ في رقدته على الموكيت يدعو الله أن لا يكون الحذاء الطائر مفخخًا، ولربما عاهد الله في سره أنه لو كَتب له عُمرًا جديدًا فإنه سيترك الحكم طواعية ويغادر البلاد فورًا إلى بلد أوربي صديق ليعيش فيه بقية حياته مستمتعًا هو وأبناؤه والأقربون الأولى بالمعروف بما تم تدكينه في بنوك سويسرا الحبيبة، ولظل فخامته ربما لساعات مفترشًا أرض القاعة وملتحفًا سقفها حتى تأتيه الإشارة من حرسه الخاص بأن الأمن قد استتب ليقف عندها منتصب القامة كالأسد الهصور ويهتف في شعبه بجسارة القائد المعلم «بقى أنا أنضرب بالجزمة.. لقد علمتكم العزة.. علمتكم الكرامة.. اوقف مكانك يا ولد.. وشوف إنت بتضرب مين بالجزمة.. إذا ضُرِب رئيسكم بالجزمة فكلكم ستُضرَبون بها»، ولكان أول قرار رئاسي يصدره الرئيس فور إخلائه من القاعة هو الأمر برمي بلد رامي الحذاء بالنابالم وتسويتها بالأرض، أما القرار الذي سيلي ذلك مباشرة فهو تعديل دستور البلاد فورًا بإضافة مادة إليه تجبر جميع من يحضر اجتماعات ولقاءات ومؤتمرات رئيس الدولة على حضورها حافيًا، ولظلت البلاد لمدة عام على الأقل تشهد مؤتمرات جماهيرية حاشدة من كافة فئات الشعب تعلن عن رفضها لغدر رامي الحذاء

وتعلن براءتها منه وتلعن الأصابع العميلة التي سولت له هذه الفعلة الشنعاء التي لا يرضاها عقل ولا دين ولأعلنت من مآذن المساجد وأروقة الكنائس صلوات الشكر للرئيس القائد الذي عصمه الله من الناس وأحذيتهم، ولتم إعلان يوم الحادث عيدًا للكرامة تأخذ فيه محلات الأحذية عطلة رسمية ويمشي فيه سكان البلاد حفاة.

لا تفهموني خطأً، أنا فخور والله بمنتظر الزيدي وبحذاءيه، لكن فخري لن يمنعني من أن أسأل: ألم يكن الأَوْلى أن نرمي حكامنا بالأحذية المادية أو حتى المعنوية احتجاجًا على فسادهم واستبدادهم وظلمهم، ألم يكن ذلك سيجنبنا مرارة الاحتلال وبشاعة الفتنة الطائفية وذل التخلف وبيادات الضباط وغلبة الدَّين وقهر الرجال.

عارف؟ عندما كنت أحدق للمرة الألف في حذاءيْ منتظر الزيدي وهما يطيران في فضاء القاعة باتجاه مطار بوش الدولي، تذكرت تقريرًا عن صانع أحذية إيطالي شهير يتعامل معه أشهر الرؤساء العرب، كان من بينهم صدام حسين الذي كان مولعًا بالأحذية الفاخرة، وسألت نفسي: آه يا منتظر، يا رجلًا من ضهر رجل، ما أحلى منظر الحذاء وهو يطير نحو وجه المحتل، لكن ما كان أحلاه وهو يطير باتجاه وجه الظالم المستبد حبيب الفناء عدو الحياة.

آه كم أنا فرحان بحذاءيْ منتظر الزيدي الطائرين، مثلي مثل غيري من العرب والمسلمين، فلا يعرف قيمة الضرب بالجزمة إلا من عاش طيلة عمره مضروبًا بها. وآه كم أنا راغب في أن أخرج مع ملايين المقهورين من أبناء أمتي إلى الشوارع لنخلع أحذيتنا التي لم يكتب لها الطيران بعد ونلوح بها في الهواء الطلق ونحن نهتف من قلوبنا

«وانتصرما.. انتصرما.. انتصرما»، ونعود إلى بيوتنا مرتاحين شاعرين بالنصر الأكيد ونحن ندعو لمن قال يومًا إن راحة الجسم العربي تبدأ من القدمين، قدميْ منتظر الزيدي.

أزهى عصور التليفونات

عندما قال لنا إنه يفكر في الهجرة من البلاد بعد أن أدخلتها تعديلات الدستور الأخيرة في نفق مظلم أصبنا بالدهشة، فصديقنا الثلاثيني لم يكن له أبدًا موقف سياسي من أي نوع، ولم تكن مواجهته بذلك تضايقه أبدًا بل كانت تدفعه للتفاخر قائلًا «الموقف الوحيد اللي خدته هو موقف الفلكي والحمد لله أهم نقلوه».

شكرت الله على أنني شهدت صحوة وعيه السياسي قبل أن أموت، لكنه عندما استفاض في شرح موقفه أدركت أن معارضته للتعديلات تنصب فقط على المادة ١٧٩ التي ستكفل للحكومة مراقبة التليفونات بلا ضابط أو رابط (أو إن شئت الحق تكفل مراقبتها بأي ضابط وبلا رابط)، وأن صديقنا لم ينطلق في تلك المعارضة من أي أسباب سياسية أو داعمة للحرية بقدر ما انطلق من سيرته العطنة كواحد من مدمني الجنس عبر التليفون.

عندما قال أحدنا له مُطَمئنًا ألا يخاف البتة لأن ما يمارسه عبر الأثير لا يجعله أبدًا خطرًا على نظام الحكم بل يجعله في «السيف سايد»، وإن المادة لن تكون سيفًا مصلتًا إلا على رقاب الإرهابيين

الوحشين أعداء الوطن، أصدر صوتًا لا يليق إلا برجل قبيح ثم أردف أعجازًا قائلًا «إرهابيين مين يا أهطل.. هو فيه إرهابي برضه هيتكلم في التليفون ويقول لزميله الإرهابي، القنبلة خلاص جاهزة شوف بقى هتحطها إمتى تحت كوبري الفنجري.. دول فجروا البرجين والبنتاجون وكانوا داخلين يخلصوا في البيت الأبيض من غير حتى ميسد كول.. هم يعني بتوع الداخلية عندنا ماشافوش سيما في حياتهم عشان يعرفوا إن الإرهابي لما بيكلم زميله في الإرهاب بينزل يكلمه من كابينة بالسيم اللي ما حدش فيهم بيفهمه ولما بيتفقوا على أي مصلحة إرهابية بيتقابلوا بالليل في الخلية ويسترهبوا مع بعض على رواقة».

قلت له «كلامك منطقي لكن من قال لك إنه يغفل عن العيون الساهرة على أمن بلادنا الذين لمعلوماتك لا يقصدون سوى شل حركة أهل الإرهاب السياسي من أنصار جماعة الإخوان المحظورة وأحباب حركة كفاية المنظورة»، أصدر القبيح نفس الصوت الأقبح وطفق يسفه رأيي «وهم بتوع كفاية محتاجين تليفونات عشان يتقابلوا يا له.. دول بيشوفوا بعض كل يوم على سلم نقابة الصحفيين.. ويوم ما حد فيهم بينسى بيوقف محمد عبد القدوس بالميكروفون ويزعق زعقتين يتلموا كلهم.. أما الإخوان فمش محتاجين يتكلموا في التليفون لإنهم بيشوفوا بعض في الجامع.. وبعدين دول فوق الميت ألف يا معلم زي ما بيقول المرشد بتاعهم.. يعني لو كلموا بعض في التليفون كل شبكات الموبايل هتقع أكتر مما هي واقعة».

زهقنا من رغي أمه فقلنا له «طب خلصنا وقول لنا تحليل أهلك للموقف». تلفت يمينًا وشمالًا ثم قال «أنا سمعت إن الموضوع ده

معمول عشان في حد جامد قوي بتيجي لجماعته معاكسات كتير من نمر برايفت فعمل التعديل مخصوص عشان يعكش المعاكس.. عشان كده بطلت قباحة عشوائي.. مش هاضبط واحدة إلا لما أكون مالي إيدي منها».

قبل أن تتاح لنا الفرصة لصب جام سخريتنا عليه رن جرس موبايله فنظر إلى شاشته ثم قال ممتعضًا «الولية دي مش هتهمد إلا لما تحبسني»، ونحن أغريناه بكارت شحن فئة المائة جنيه لكي يكلمها أمامنا فنرى عيانًا بيانًا فتوحاته التي كان يحكي لنا عنها، كان الإغراء أقوى منه فرد عليها أخيرًا بصوت لا تنقصه النحنحة «آلو.. عامله إيه يا بيبي.. لا أنا لوحدي.. إيه ده بجد.. يخرب عقلك.. طب استني كنت عايز أقولك الأول.. أنا صحيح باعشقك بس مش قد عشقي للحزب الوطني ولازم تعرفي إني مع التمديد والتوريث والتعديل والتضبيط، ده غير إني أساسًا من جيل مبارك وأهل الفكر الجديد.. قولي لي بقى إنتي لابسه إيه».

انتبه أمامك كمين

في مصر وحدها دونًا عن كل بلاد الأرض يمكن أن يحدث لك هذا الموقف.

تكون راكبًا التاكسي في عز الليل تريد أن تعود إلى بيتك آمنًا في سربك معافى في بدنك خاصة وأنك بالكاد أصبح عندك قوت يومك، فيتوقف بك التاكسي فجأة ليقول لك السائق «معلهش يا باشا مش هاقدر أدخل من الشارع ده.. هندخل من الشارع اللي جاي»، ستظن به الشر وستقول له بعنف «ليه يعني يا اسطى»، وسيرد عليك بلهجة منكسرة يبغي منها إشراكك في مشكلته «أصل هنا في كمين يا بيه.. والحكاية مش طالبة غتاتة»، لو كنت مواطنًا فنلنديًا ستقول له «وإنت إيه اللي مخوفك.. طالما انت سليم خش من أي كمين ولا يهمك»، لكن لأنك مواطن مصري تعيش في هذا الوطن ويعيش هو فيك ويعيش حكامه على قفاك أنت والوطن، فإنك ستهز رأسك مؤيدًا له ومتعاطفًا معه بل وربما شاكرًا له يقظته، فأنت تعلم علم اليقين أن الغتاتة في مصر ليست مرتبطة بعدم السلامة بل هي مرتبطة بالسلامة أكثر، وكم من الناس غرته سلامته فأخذ يقولها بصوت عال «أنا ماشي سليم ولا حد يقدر يكلمني»، ووقعت على رأسه وقائع جعلته لا يقدر على

الكلام أساسًا. لكن ليس هذا هو المهم الآن. المهم أنه طيلة الوقت يحدث هذا الموقف مع سائقي التاكسي والميكروباص وسيارات النقل وأصحاب السيارات الخاصة الذين لديهم مشاكل في أوراقهم أو مبسوطين حبتين ولا يحبون سماع كلمتين وعظ وإرشاد، الجميع في مصر يعرف أين يقع الكمين، لكن أحدًا منهم لا يسأل، كيف يكون الكمين كمينًا وجميعنا نعرف مكانه. مش كده وبس، الكمين نفسه يقول لنا أنا كمين، أما رأيت بالله عليك على الطريق الدائري كيف علقت قوة الشرطة المختصة بتأمين الطريق الدائري لافتة قد الداهية كتب عليها «انتبه أمامك كمين»، بالطبع لا تدري هذه اللافتة موجهة لمن؟ هل لوزير الداخلية وقيادات الداخلية الذين من المفروض أن يفرحوا بمرءوسيهم اللي شايفين شغلهم زي الفل؟ أم أنها موجهة للمجرم الذي يفترض به أنه غافل عن وجود كمين، وبالتالي فإن الداخلية باعتبارها صاحبة القلب الكبير والتي لا تختال علينا أبدًا ولا يرضيها أبدًا أن تأخذ أحدًا على غرة، مطلوب منها أن تنبهه إلى أنه سيلاقي وجه كمين، ويقوم بتخبئة ما لديه من ممنوعات، أو الاستعداد نفسيًا وهو يجتاز الكمين الذي ليس كمينًا، أو ربما لعلها نصيحة مستترة له بألا يلقي يده إلى التهلكة ويسلك طريقًا آخر وربنا يسهل له في اللي هو معاه، فأيًا كان ما معه لا يمثل خطرًا حقيقيًا على الأمن طالما هو ليس متطرفًا دينيًا أو ناشطًا في حركة كفاية أو مناهضًا لنظام الحكم.

قد تعتبرني تافهًا لأني أثير قضية كهذه، أو ربما تقول لي يا أخي يعني أنت تريد من كمائن الداخلية أن تصير اسمًا على مسمى لا نعرفها ولا نتوقعها، هو إحنا ناقصين إجراءات بوليسية؟ وقد تعتبر أنني أحاول أن أعرّف الداخلية شغلها مع أننا نعلم جميعًا أنها شايفاه

زي الفل، حتى جرب اطلع في أي مظاهرة وإنت تتأكد. لكنني لا أبالي برأيك أيًا كان مع احترامي له، فبوصفي دائم السفر على الطرق الزراعية والصحراوية بشكل أسبوعي لظروفي الشخصية تؤرقني هذه القضية وأعتبرها جزءًا من حالة العبث التي تحكم مصر في كل مناحي الحياة، لا أتصور أن يكون كل سائق في مصر على علم بمواقع الكمائن واللجان الموجودة في كل الطرق، اللهم إلا بعض الكمائن المفاجئة التي تنصب في حالة الكوارث، لا أعني الكوارث العادة التي نشهدها كل يوم، بل أعني الكوارث السوبر لوكس المقندلة والتي تهز البلاد هزًا، والتي نسأل أنفسنا عادة بعد حدوثها، هم اللي عملوها عدّوا إزاي؟ وأزعم أنني بما أكتبه هنا أعطي إحدى الإجابات، عدّوا لأنهم عارفين أين يكمن الكمين، مع أن الفكرة في كون الكمين كمينًا هو أن يكون كمينًا فعلًا، يعني معتمدًا على الكمون والاختفاء والسرية.

بالمناسبة ما دفعني لهذا الكلام الآن ليس أنني متضايق من المرور على الكمائن، فأنا مواطن صالح وطول عمري أعطي للكمين برستيجه ولا أشعر كل من يقف عليه أنني أقلل من هيبته باعتباره كمين غير كامن، بالعكس أظهر دائمًا مشاعر المفاجأة بالكمين والرهبة من الكامنين فيه والتعاون معهم على آخري. ما دفعني لأن أفتح سيرة الكمين هو أنني قرأت واستمعت في الأسابيع الماضية إلى الكثير من السياسيين والكُتاب الذين علقوا على أحداث الفتنة الطائفية بالإسكندرية بكلام قالوه عقب كل فتنة طائفية محذرين الشعب المصري من أن يقع في كمين الفتنة الطائفية الذي نصبته أيادٍ خبيثة خفية تتربص باستقرار الوطن وسلامة أراضيه.

والحقيقة أنني مع احترامي لهؤلاء السادة الذين لا أشك أبدًا في صدق وطنيتهم، أصبحت أعتقد أن معالجة أي أزمة سياسية أو اجتماعية بالحديث عن وجود كمين أو فخ أصبح جزءًا من مظاهر استفحال المشكلة لا من طرق معالجتها، فما دمنا نعرف أن هناك كمينًا منصوبًا لوحدتنا الوطنية فلماذا نقع فيه كل مرة بنفس التفاصيل ونفس السيناريو بل وبنفس ردود الأفعال من كل الأطراف، إلا إذا كنا نطبق نفس منهجنا في التعامل مع كمين الشرطة الذي نعلم أنه ليس كمينًا ولكننا ندخله مُدَّعين أنه كمين فعلًا، ويدعي الواقفون في الكمين أنهم فاجأونا فيقومون بعمل إجراءات الكمين متناسين أنه لا يوجد مجرم أبله يمكن أن يدخل برجليه كمينًا يكمن في نفس مكانه دون تغيير منذ عشرات السنين، ومع ذلك الضابط يقوم بالتفتيش بحماس ونحن نعينه بحماس، ويظهر أن الأمن مستتب مع أنه ليس كذلك.

كذلك الحال كلنا نعلم أن هناك من يتربص بوحدتنا الوطنية وينصب لنا كمينًا لكي نندفع إلى إشعال فتنة طائفية يتورط فيها جهلاء المسلمين مع جهلاء المسيحيين فتندلع حرب طائفية تشعل الأخضر واليابس، ومع أن هذا الكمين معروف منذ عشرات السنين وأصبح في الفترة الأخيرة مفقوسًا مثل كمين الطريق الدائري لكننا نواصل نحن أبناء الشعب الواعي اليقظ السير نحوه ونحن نتظاهر بأننا مش واخدين بالنا ونحذر بعضنا البعض من الوقوع في الكمين تمامًا كما يفعل سائقو البيجوهات مع بعضهم على الطرق، ومع ذلك ها نحن ندخل إلى الكمين برجلينا ونتظاهر أنه كمين مع أنه ليس كامنًا أبدًا بل هو مكشوف وعلى عينك يا تاجر، وها نحن نرتكب كل الحماقات

التي أصبح معدل ارتكابنا لها في السنين الأخيرة أكثر تطابقًا وأشد إثارة للدهشة والقرف، ثم نعزي أنفسنا بأننا وقعنا في كمين، بينما الدولة المباركة تقف متفرجة علينا مكتفية بضرب الطوق الأمني حولنا وضربنا إن لزم الأمر فإذا ما لامها أحد على غبائها أو عجزها أو فشلها أو ترهلها أو لعبها بالنار، تعلن على الفور إخلاء مسئوليتها بالإشارة إلى اليافطة قائلة «ما إحنا قلنا لكم.. انتبه أمامك كمين»، ثم تسارع إلى اللحاق بنشرة ستة لتعلن أن الأمن مستتب وهي تعلم أنه ليس مستتبًا، تمامًا بالضبط كما أن الكمين ليس بكمين.

في رثاء الكالسيوم!

عارف؟ اللحظة التي أفكر فيها جديًا أن أهجر استقلاليتي ومشاغبتي وأتحول إلى كاتب مهادن موالس هي اللحظة التي تعقب نظري الطويل في المرآة إلى أسناني.

إن حدث ونظرت إلى أسناني مضطرًا يغمرني حزن عميق أسفًا على حالها وحالي، فأقول مصارحًا نفسي: هذه ليست أسنانًا تليق بشخص يرغب في الإصلاح أبدًا، بل هي أسنان تليق بمن يسعون في الأرض فسادًا، لنحمد الله على أن الأسنان ليست وسيلة للحكم على البشر، فلو رأى أسناني قاض عادل لطبق علي وعليها حد الحرابة.

مرة سألت صديقي وطبيبي الروائي اللامع العالمي الدكتور علاء الأسواني إذا كان هناك في كلية طب الأسنان تخصص «طب أسنان بيطري» لكي أتابع العلاج لدى أحد خريجيه، لأنني أشعر بالخجل بسبب إكراهي له كصديق بسيف الحياء على معالجة أسنان أقرب إلى أسنان الجدي منها إلى أسنان البني آدمين. في البداية كان د. علاء يجاملني ويقول لي إنه رأى ما هو أسوأ وإن أسناني تعتبر مثالية مقارنة ببعض الحالات التي تأتيه، لكنه مع الزمن فقد رغبته في المجاملة

وأصبح يفتح فمي ليقول لمساعديه «لا.. العملية بقت بايظة خالص.. إيه ده.. لا.. إنت لازم تنتظم معانا شوية»، صار يقول ذلك بنبرة أقرب إلى التهديد فقد ناله من وراء إهمالي الكثير من الحرج، أقسم له دائمًا إنني جئته هذه المرة صاغرًا نادمًا وصادقًا في توبتي، وأطلب منه فقط أن يبدأ بعلاج الضرس الذي يفجر براكين الألم في فمي فقط لكي أتمكن من التركيز في التوبة، ثم أستحلفه أن يعاملني هذه المرة بقسوة شديدة وينسى ما بيننا من عيش وملح وقهاوي فيحدد لي المواعيد التي يريدها هو دون أن يأخذ رأيي فيها مقسمًا له إنني سأمتثل له وأطوع حياتي بناء على مواعيده، يختفي الألم فأختفي معه وعندما يندلع بركان ألم جديد بعد أشهر أو أسابيع أعود كأن شيئًا لم يكن مفترضًا أنه سيتسامح مع براءة الأطفال التي في عينيا.

أحيانًا أسأل نفسي هل يلوم علاء الأسواني نفسه لأننا أصدقاء؟ إذ إن تلك الصداقة تضطره لتحمل عشوائيتي وإهمالي الذي يزيد أعباءه في علاجي، فضلًا عن مجاملتي بعمل تخفيض حقيقي في ما يتقاضاه مقابل محاولة إصلاح أسنان أفسدتها أنا قبل أن يفسدها الدهر، ربما قهر الصداقة هو الذي يمنع د. علاء من أن يقف في وسط العيادة مشهرًا سبابته في وجهي وصارخًا فيَّ بعزم ما فيه «ما تورينيش بُقك تاني.. خسارة فيك حقن البنج.. لما تبقى إنسان مسئول إبقى تعالالي».

منذ أسابيع شعرت بمداهمة الشيخوخة لي في عز شبابي، عندما انكسر ضرس لي بينما كنت أستخدمه في أكل قطعة عيش ناعمة والنعمة، قبل أن أقرف الذين كانوا يشاركونني الطعام هرعت إلى دورة المياه وأخذت أنظر بأسى إلى ضرسي المدلى في هواء فمي، لم يفزعني منظر ضرسي المكسور بقدر ما أفزعني منظر زملائه الذين

يحسدونه على خروجه من الخدمة ويتمنون الكسر ليرتاحوا من عناء العيش معي، يا الله، هل سأركب طقم أسنان قبل أن أبلغ الأربعين؟ لو كنت قد اعتدت الكذب على نفسي لبكيت على حالي، لكنني لا أستحق أن يذرف أحد دمعة على أسناني، حتى أنا لا أستحق دموعي على نفسي.

مرة قال لي د. علاء وهو يواسيني إن مينا الأسنان لديَّ ضعيفة من أساسها، أسنان بعيد عنك مؤسسة على شفا جرف هار، أسنان ناقصة كالسيوم، ولذلك فهي تسقط تحت وطأة التسوس دون أدنى مقاومة كالتي تبديها الأسنان التي أسست على بنيان مرصوص من الكالسيوم، ربك والحق أراحني شعور أنني لست سوى ضحية لا تملك من أمرها شيئًا. أخذت ألوم أمي مسّاها الله بالخير في قعدة صفا على تفريطها في حق الكالسيوم، على الفور انهمرت في البكاء حاكية لي نفس الظروف الصعبة التي منعتها من إرضاعي رضاعة طبيعية، تلك الظروف التي تتذكرها دائمًا كلما عدت من عند دكتور الأسنان، أردت أن أسوق فيها فأحملها مسئولية ما صرت إليه، جفت دموعها فجأة وشخطت فيَّ بصوت منزوع الحنية «يا أخي احمد ربنا.. غيرك ما كانش لاقي ياكل وإنت زعلان لي على شوية سنان، وبعدين ياما قلت لك اغسل سنانك قبل ما تنام آدي آخرة اللي ما يسمعش كلام أمه»، لم تكن الظروف مناسبة للخوض في جدال عقيم حول ما إذا كنت قد رأيت جنس فرشة أسنان في تاريخ طفولتي البائسة، لا داعي لتقليب المواجع، ينبغي فورًا أن أقبل رأسها ويديها وأعتذر لها عن قلة أدبي وعدم سماعي لتوجيهاتها الحكيمة التي لو كنت قد استمعت إليها لما أصبح حال أسناني كما هو.

ليست فروسية والنبي، أنا لن أُحمل أحدًا مسئولية ما أصبحت عليه، أنا أستحق ما جرى لأسناني، أنا وأسناني نبت للثقافات الفاسدة التي تسود حياتنا، ثقافة العلاج بالمسكنات، ثقافة البحث عن الحل بعد وقوع الكارثة، ثقافة الطناش والإهمال والطلسقة والترقيع، ثقافة عدم الجدية والسخرية من الذين يفعلون أي شيء بجدية حتى لو كان غسيل أسنانهم بالفرشاة كل يوم، ثقافة الحشو المؤقت حتى يسقط فنستبدله بحشو مؤقت آخر، ثقافة هو إحنا فاضيين للكلام ده أيًا كانت خطورة الكلام ده، ثقافة الهروب من تحمل المسئولية طالما كان بالإمكان الشكوى من الزمان والظروف والنصيب، لذلك لا تشفقوا عليَّ، فأنا لا أشفق على نفسي، أنا أستحق هذه الأسنان الخربة، وهي يا عيني لا تستحقني أيًا كانت نسبة الكالسيوم في موانيها المتصدعة.

عارف؟ من ييجي خمسة عشر عامًا كنت أقول لأصدقائي الحالمين بأن يصحوا من النوم على وجه حاكم أفضل، أو وجه حاكم آخر والسلام، «لن يسقط نظام مبارك إلا بعد أن تسقط أسناني»، وهاذي أسناني قد سقطت، فاللهم لا اعتراض على حكمتك في توزيع الكالسيوم.

الذين خلّوا وجه مصر شوارع

كما تكونوا يولّى عليكم، وكما يولّى عليكم تكون شوارعكم.

الشوارع تشبه حكامها، الحزب الوطني يذكرني بأول شارع فيصل الذي لو زاره الملك فيصل رحمه الله لما استخدم سلاح البترول في حرب أكتوبر أبدًا. حُكم الرئيس مبارك يُذكرني بشارع الجلاء الذي لا ينجلي لا آناء الليل ولا أطراف النهار، حال مصر تحت حكم الرئيس مبارك يذكرني بشارع القصر العيني يحل عليه غضب الله في الصباح ويرد لطف الله إليه الروح في المساء. كلام قادة الحزب الوطني عن إنجازاتهم يحمل إلى خياشيمي الروائح إياها التي تهجم عليك من أسفل كوبري مهمشة. وكلام جمال مبارك عن رؤيته لمستقبل مصر يجعلك تشعر أنك عالق في ميدان ابن سندر، حيث يعدك كلامه ويمنيك بجمال مصر الجديدة لكن أفعاله هو وأصدقاؤه من رجال الأعمال تذهب بك على الفور إلى نفق العباسية الكئيب.

عندما يحب المصريون شارعًا يسبغون عليه وصفًا ينبض بالحميمية «شارع رايق»، ابقى قابلني لو سمعت هذا الوصف الآن، ذهب الحزب الوطني المبارك بروقان الشوارع مع روقان

المزاج وروقان العيشة، والمصريون لم يعودوا يفكرون في أوصاف يخلعونها على الشوارع، بقدر ما يفكرون في مخارج يخلعون بها من الشوارع السد التي تحاصرهم.

«الشوارع بقت حاجة صعبة أوي» اعتبرها ترجمة مهذبة على طريقة معامل أنيس عبيد للشتائم التي يطلقها المصريون في هذا العهد المبارك على شوارعهم التي لم يعودوا يتورعون عن شتيمتها بالأب والأم، في العجوزة شاهدت بأم عيني سائق تاكسي عجوزًا وقبيحًا ينزل في عز الزحمة ليشتم السيدة التي يحمل الشارع اسمها الأول وحده، عندما ذكرته بالله وطلبت منه ألا يخوض في عرضها، قال لي إنه متأكد مما يقوله وإنها لو لم تكن كما يقول لسموا الشارع باسمها الثلاثي.

في الخمسينيات افترض أبونا صلاح جاهين حوارًا ساحرًا بين الشارع والحارة يزهو فيه الشارع على الحارة بحداثته ويعايرها برثاثة حالها، وبرغم إيمانه بالثورة لم يُنه جاهين الصراع لصالح الشارع، منهيًا الجولة لصالح الحارة التي على حد قوله «ردت رد خلت الشارع اتسد»، لم يحدد جاهين طبيعة الرد الذي نتعته الحارة لكنه تركه بمعلمة لخيال القارئ سقيمًا كان أو سليمًا؛ السليم افترض أن رد الحارة جاء صوتيًا منغمًا، أما السقيم فقد افترض أن ردها جاء حركيًا.

لو كان جاهين بيننا وأدار اليوم حوارًا عصريًا بين الحارة والشارع لما نجت الحارة بردها، ولأخرج الشارع مطواة قرن غزال أو سيفًا أو كذلكًا ليُعَوِّر الحارة، أو لرمى عليها مية نار وريّح نفسه. زمان

كانت الحواري متهمة في أخلاقها، اليوم لم تعد تدري مم ينبغي أن تشكو، من أخلاق الحواري، أم من أخلاق الشوارع، أم من أخلاق الفلاحين، أم من أخلاق السياسيين، أم من أخلاق الأطفال الذين كانوا يسيرون حفاة عراة في الشوارع وراء عربية الرش يلقون الطوب على المارة ولما كبروا وكبرت معهم أخلاق الشوارع فعينتهم الدولة رؤساء تحرير لصحفها لكي يرموا بلاهم على كل من يحدث نفسه أن يحدثها بسوء.

هذا ما آل إليه الحال. الحواري صارت أوكارًا إلا ما ندر، والشوارع شرعت شريعتها الخاصة التي لم يعد للناس خيار سوى أن يذعنوا إليها أو يهربوا إلى شققهم التي حولها الغلاء والفقر وفقدان الرغبة إلى شقوق يَكِنُّ الناس في صالاتها المعتمة بعد أن لم يعد هناك ما يغري بالفرجة في الشوارع التي تطل عليها البلكونات التي صارت بدورها مخازن للكراكيب المقبضة.

كلما تقدم بنا العمر في ظل هذا العهد المبارك أصبحنا نفقد كل يوم شارعًا ذا اتجاهين، نراه وهو يسقط أمامنا ليصبح شارعًا ذا اتجاه واحد، طبيعي بعد كل هذه السنوات من حكم الفرد أن تطلب الشوارع أنفسها أن تصبح اتجاهًا واحدًا، شارع الصحافة وشارع الحرية وشارع الثورة وشارع السياسة وشارع مجلس الشعب وشارع المال والأعمال، كلها صارت شوارع ذات اتجاه واحد، اتجاه توريث قصر الرئاسة، وما أفلح قوم لم تكن شوارع الصحافة والحرية والمال والأعمال والسياسة لديهم ذات اتجاهين.

الشارع عند الحاكم الذي اغترب عن شعبه مكان يمرق منه من

مطاره إلى قصره، يخرج إليها في زينته فلا يرى فيها إلا وجوهًا غائمة تحجبها أجساد متشابكة الأيدي ضهورها بيضاء في الصيف وسوداء في الشتاء، يخطف نظرة إن أراد من خلف زجاجه المصفح الواقي ضد الرصاص وضد التغيير إلى أسفلت الشوارع المغسولة وأرصفتها المدهونة وأعمدتها المنيرة وأشجارها الباسقة، فيحمد الله ويثني على محافظ العاصمة، ويستند على مقعد سيارته راضيًا عن الشغل الذي اتعمل في البلد. مع أنه لو طلب تغيير مسار موكبه إلى أول شارع يقابله لرأى الشوارع على حقيقتها، عكرة قذرة متعكرة ممرورة ملخفنة لم تغسلها إلا دموع الناس ولم تدهن إلا بمرار العيشة.

لو عقل الحاكم لأدرك أن الشارع طريقه الوحيد لراحة البال وأمان القصر، وتأمينه الأكيد ضد غدر الزمن، لو عقل لقرأ في كتب التاريخ عن الشوارع وقلبتها الوحشة عندما تضيق بساكنيها ويضيقون بها، ولما استمع إلى بطانة تهون له من خطر نزول الشعب إلى الشوارع على أساس أن الجيش سينزل عندها إلى الشوارع ونبقى خالصين، لو رضي الله عنه لأدرك أن ما يحتاج إليه من أجل حكم يطول ويمتد للأنجال إن أراد هو أن ينزل العدل إلى الشوارع وتحل الرحمة على الشوارع وترتوي بالأمل الشوارع وتنهض البلاد التي حولت سنوات حكمه الطويلة وجهها الجميل إلى شوارع.. سد.

بصراحة.. ما الفرق بينك وبين دكر البط؟

من غير لا سلام ولا كلام ولا مقدمات فارغة لا تودي ولا تجيب، دعني أسألك سؤالًا أتمنى أن يكون ضميرك لا يزال حيًّا فيملي عليك أن تجيبني على سؤالي بصراحة.

سين سؤال: متى كانت آخر مرة تمردت فيها؟ انتظر رايح فين، ما لك جزعت هكذا من مجرد سؤال؟ من قال لك إنني أقصد التمرد على نظام الحكم؟ لا تخف لن أورطك في موضوع كهذا، إن لم أكن خائفًا عليك سأخاف على نفسي أولًا من تهمة التحريض على قلب نظام الحكم، إذا افترضنا أن للحكم لدينا نظامًا أو قلبًا. أنا يا سيدي أسألك عن التمرد كمبدأ، كموقف، كطريقة في الحياة، دعني أعيد صياغة السؤال الذي كدت تجري منه لأضعه بين يديك في صورة أسئلة تفصيلية، بشرط أن تتذكر أنك لا زلت تحتاج إلى الصراحة التي طلبتها منك في البداية.

متى كانت آخر مرة تمردت فيها على ما يفرضه المجتمع عليك، على الأوضاع الخاطئة التي تغرق فيها لأذنيك؟ على أن تسير في القطيع، قطيع الأسرة أو قطيع المدرسة أو قطيع الجامعة أو قطيع

المحكومين؟ هل تمردت مرة على الكلام التافه الذي يسميه كل من حولك الأصول فجربت أن تقول لهم إذا كانت هذه الأصول فلماذا لم توصلنا إلى شيء ونحن منذ أن ولدنا ونحن نمشي عليها؟ ولماذا لا نجرب ولو لمرة ماركة أخرى من الأصول يعني من باب التجربة ليس إلا؟ باختصار ومن الآخر متى كانت آخر مرة قررت فيها أن تعيش كما خلقك الله حرًا لا كما جعلتك هذه البلاد «نفرًا»؟

لسنا في برنامج مسابقات تافه حتى أفترض أنك لا بد أن تجيب على أسئلتي الآن لتكسب رحلة إلى نويبع أو «مَجّ» عليه صورة الرئيس مبارك الحالي أو القادم. بالعكس سأتركك تأخذ وتعطي في هذه الأسئلة مع نفسك، وسأكون سعيدًا لو قلبت عليك المواجع، وسأشعر بمنتهى الرضا لو جعلتك مكسوفًا من نفسك ومكشوفًا عليها، وسأنام قرير العين لو جعلتك تسهر ليلة كاملة تفكر في العمر الذي ضاع منك أونطة وأنت تعتقد أنك ميت فل وعشرة مع أنك لست كذلك. لا تلمني. لست ساديًا أتلذذ بتعذيب القراء ولست موتورًا حاقدًا أسعى للعكننة عليهم، كأنهم في البهجة يرفلون وفي النعيم يتقلبون، كل ما في الحكاية أنني أحاول أن أرد الجميل الذي أسداه لي أناس سبقوني وجعلوني في وقت ما ـ كان مبكرًا بحمد الله ـ أفيق من وهم أنني أحيا الحياة المطلوب إثباتها بالتفصيل، وجعلوني أقاسي عذاب التمرد سنين طويلة وأكتوي بناره لأصير آدميًا يحيا بفطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله.

هل أنت بني آدم؟ العفو والله مش قصدي خالص. أكيد أنت بني آدم، لكن هل يهمك أن تكون بني آدم؟ ليس هذا لغزًا، دعني أشرح لك وجهة نظري من السؤال لعلك تسأله لنفسك قبل فوات

الأوان، شوف يا سيدي المفروض أن الله عز وجل خلق البني آدم منّا أطوارًا كما يقول القرآن الكريم، حيث أراد لنا بحكمته أن تكون حياتنا متدرجة عبر مراحل، فنبدأ حياتنا أطفالًا نتعلم من الذين سبقونا خلاصة ما وصلوا إليه من تجارب ونستخدم ما تعلمناه منهم في اكتشاف الحياة طيلة فترتي الطفولة والمراهقة، وعندها نبدأ في التمرد على ما تعلمناه منهم ونخضعه للنقد والتمحيص فنجد فيه أشياء صحيحة نتمسك بها ونطورها، ونجد فيه أشياء باطلة فنرفضها ونحاربها، ونستمر في ذلك طيلة فترتي الشباب والرجولة حتى نصل مع بدايات مرحلة الكهولة إلى حصيلة كل هذا التمرد والاكتشاف والقلق والشك فنصيغ كل ذلك في ما تعارف البشر على تسميته بالخبرة التي نحاول أن ننقلها إلى غيرنا، وربما لا تصل أبدًا فنقرر أن نستمر في مكابدة القلق والتمرد والشك راضين بأن نموت بحسرتنا فنجد اليقين عند صاحب اليقين.

هذا هو المفروض، لكن منذ متى كان المفروض يحدث في بلادنا التي تظن أنها سعيدة؟ يعني أنا وأنت نعلم أننا لا نعلم ولا نسعى لكي نعلم ولا نفعل شيئًا مما افترض الله عز وجل أننا سنفعله عندما خلقنا، والسبب أننا نقضي حياتنا كلها نسمع الكلام، كلام كل من هم حولنا سواء كانوا أهلًا أو معلمين أو قادة روحيين أو رؤساء عمل أو رؤساء جمهورية أو شركاء حياة، وهي حياة لا تليق ببني آدم بقدر ما تليق ببني بجم.

إذا كنت تعتقد أنك لست من بني بجم بل أنت إنسان من جنس بني آدم الذين كرمهم الله في البر والبحر فأفسدوا في البر والبحر، فهل أنت حقًا تعيش الحياة كما خلقها الله أطوارًا أم أن حياتك تسير

كلها في طور واحد لا يتطور. لا تتسرع في الإجابة وتعال نحسبها سويًا؛ ألسنا منذ اللحظة التي «نتزلط» فيها إلى الدنيا ونبدأ في إدراك ما حولنا نسعى جاهدين لكي نحصل على أول نيشان يمنح في سن الطفولة، ألا وهو نيشان «بيسمع الكلام» والذي نحصل بموجبه على امتيازات لا يحصل عليها الوحشين الذين لا يسمعون الكلام، عندما ندخل إلى المدرسة نحصل على الدرجات الأعلى عندما نسمع كلام المدرس ونحفظه ثم نرجّعه على ورقة الإجابة فنحصل على النيشان التالي في حياتنا «شاطر»، في الجامعة يلعب الدكتور وصبيانه من المدرسين المساعدين والمعيدين معنا نفس الدور الذي لعبه المدرسون في المدرسة، وبالتالي فإن حفظنا لكلامهم وترجيعه على أوراق الإجابة يصل بنا إلى النيشان التالي «له مستقبل»، إذا حصلنا بعد التخرج على عمل سنصل إلى نيشان «هارد ووركر» بسماع كلام رئيسنا في العمل حتى لو كان حقيرًا ولا يستحق أن تخلعه من رجلك، أما إذا لم نحصل على عمل فإننا نقضي وقت الفراغ بسماع كلام أهلنا بأن الإيد البطالة نجسة، عندما نتزوج لا بد أن تسمع البنت كلام جوزها ولا بد أن يسمع الزوج كلام أمه أو يكون زوجًا عصريًا فيسمع كلام زوجته وكلام أمها لكي يعيش هو وزوجته في تبات ونبات ويرزقهم الله بأولاد يسمعون كلام بابا وماما وجدو وتيتا وجميع الأهل والأقارب، وأثناء كل ذلك وقبله وبعده نستمع جميعًا إلى كلام المتكلم الأكبر رئيسنا في الوطن الذي يمشي كلامه على كل المتكلمين والمستمعين، وأثناء كل ذلك وقبله وبعده لا نتمرد ونحن نحاول أن نفهم ديننا لكي لا نُتهم بالكفر مع أن الله سبحانه وتعالى أوجب علينا أن نعبده على علم وفهم لا على حفظ

وصم وبغبغة، ولا نتمرد على حكامنا فنسألهم من أين لكم هذا؟ أو إلى أين ستذهب بنا يا هذا؟ أو متى ستتركنا يا ذلك لكي لا نأكل على قفانا ونجيب لأهلنا الكافية ولا نتمرد على أهلنا إذا أرادوا أن يفرضوا علينا تصوراتهم على الحياة وتفضيلاتهم لها، وماذا ندرس ومن نتزوج ومتى ننام وكم من الوقت نظل في الحمام؟ بذمتك ودينك هل هذه عيشة؟ عندك حق هي عيشة فعلًا بدليل أننا جميعًا نعمل زي الناس، لكن بالله عليك هل تختلف هذه العيشة عن عيشة ذكر النمل الأبيض أو أنثى كلب البحر أو خنثى فرس النهر؟ ولماذا خلقنا الله إذن بشرًا ولم يخلقنا حيوانات ولا مؤاخذة؟

تخيل موقفك مثلًا لو قررت أن تذهب يوم العيد إلى جنينة الحيوانات، لا أعني التي تعيش فيها الآن، أقصد جنينة حيوانات الجيزة وقد قررت بمناسبة العيد، آه صحيح كل سنة وأنت طيب، أن تفسح زوجتك أو خطيبتك أو حبيبتك أو الحتة بتاعتك أيًا كان توصيفها، تقف فرحانًا بنفسك فاردًا قلوعك على الزرافة وأنت توكلها، أو عمال تتريق على الخرتيت، أو تقوم بممارسة ميولك السادية على القرود، تخيل لو فجأة أنطق الله أحد هؤلاء وسألك: «مش مكسوف من نفسك جاي تتشطر علينا.. إيه الفرق بينك وبيننا.. القفص يعني يا قفص.. طب ما إنت لو جيت مكاننا هتحس إن اللي زيك هم اللي في القفص.. عاملنا فرجة وإنت لا تقدر تقول لأ لأهلك، ولا لأساتذتك ولا لرؤساءك، ولا لأمين الشرطة اللي ممكن يضربك على قفاك، ولا لصاحب النفوذ اللي ممكن يدوسك بقلب جامد لإنه عارف ديتك، ولا للحاكم بتاعك اللي لا إنت عارف هو عمل كده ليه وماعملش كده ليه.. يا شيخ اتنيل وخد العبيطة اللي إنت فرحان بيها وروحوا اقرفوا حد غيرنا». ستسألني

لماذا نقلت لك حديث الحيوانات الافتراضي بالعامية، لكي تهرب من السؤال الأهم من ما إذا كان الحيوان سيستفك بالعامية أو بالفصحى، السؤال الذي لو فكرت جيدًا في إجابته من الممكن أن تغير حياتك وحياة من حولك، وربما لو فكرنا جميعًا في إجابته لتغيرت حياتنا وحياة بلادنا التي هي كما نعلم جميعًا حياة لا تسر الصديق ولا تغيظ العِدا. السؤال ببساطة وعلى بلاطة «ما هو الفرق بيننا وبين الحيوانات عندما نفقد قدرتنا على التمرد؟».

دعني أقلها لك على بلاطة، طبعًا الحيوانات أفضل وأجدع منا. بذمتك أليست هذه إجابة منصفة على سؤال الأمس «ما الفرق بيننا وبين الحيوانات عندما نفقد قدرتنا على التمرد؟». الحيوانات على الأقل ستبعث يوم القيامة ترابًا ولن تحاسب على أنها لم تُنكر المنكر ولم تأخذ على يد الظالم، إن ما باستش على إيده كمان، وحتى قبل يوم القيامة تظل الحيوانات أسعد حالًا لأنها ليست مطالبة أبدًا بأن تخرج في مواكب مبايعة لتهتف بهتافات تنافق ملك الغابة أو ابن ملك الجنينة أو السيدة مرات الأسد، الحيوانات لا تتفرج على نشرة ستة، ولا تقرأ جرايد النهارده، ولا تلبس ما يعجب الناس، ولا تقول للذي يتزوج أمها يا عمي، ولا تقف في طابور العيش ولا تنحني في الميكروباص، ولا يلتصق بها أحد التصاقًا غير بريء في الأتوبيس، ولا يسبها ضابط بالأم فتقف ذليلة عاجزة، من الآخر لكي لا أقلب عليك المواجع أكثر، عندما نفقد التمرد فإننا لن نحظى حتى بما تحظى به الحيوانات من نعيم في الدنيا وبراءة في الآخرة.

المضحك.. مضحك إيه يا أخي بس، المقرف أنك عندما تجلس لتستمع إلى واحد من الذين يفترض بك أن تسمع كلامهم طيلة

حياتك لتسأله عن ذكريات شبابه، أو حتى تستمع إليه وهو يتحدث عنها في «الراديون» أو يرويها على حلقات في الصحف ستجده يتفاخر بجيله الذي كان متمردًا صاحب أحلام وطموحات، وستسمعه ينعي إلى مصر حال شبابها اليوم الذي لم يعد يحلم بشيء ولا يطمح إلى شيء، عندها إذا كان لديك من الصبر ما يجعلك لا تبادر بلعن سنسفيله وإنما تقول له بتهذيب إن الشباب لكي يكون له دور فاعل في المجتمع لا بد أن يتمرد على القيود المفروضة عليه ولا بد أن يصارع الأجيال الكابسة على نفسه، عندها سيقول لك: ومن الذي منعك من التمرد يا أخي؟ ما تتمرد حد حايشك، وعندما تصدقه وتبدأ في التمرد سيقول لك بعلو صوته وعزم ما فيه: وصلت بيك البجاحة إنك تكسر كلامي كده وأنا حي، ستقول له وأنت تحاول الفهم: مش قلت لي اتمرد. لن يرتبك بل سيرد عليك: أيوه ما قلناش حاجة لكن اتمرد بأدب. ثم سينصرف عنك وهو يضرب كفًا بكف ناعيًا إلى مصر شبابها المتمرد قليل الأدب الذي لا يسمع كلام بابا ولا ماما ولا سيادته ولا حضرته ولا فخامته، وسيتركك تكلم نفسك وتقرر أن تتمرد في سرك ومع أصحابك ذلك التمرد الذي يتم استخدام ورق البفرة في التعبير عنه، أو إذا كان صدرك تعبانًا ستختار ما يختاره أغلب من في سنك وهو أن تتمرد التمرد الذي يتقبله المجتمع، صحيح أنه يتقبله على مضض ويسم بدنك عندما تفعله أيضًا، لكنه في النهاية لا يصطدم بك لو فعلته، أقصد التمرد الشكلي الذي يجعلك تربي شعرك وحشرات شعرك، أو تقلل عدد مرات الحموم، أو تلبس الجينز المقطع، أو تؤمن بقناة ميلودي كمنهج حياة، أو تمارس العادات السرية التي أمست علنية، أو ترفع

صوت الكاسيت على الآخر لتقلق العمارة، أو تقطع كراسي السينما والأتوبيس، أو تعاكس أي أنثى معدية في الشارع آنسة كانت أو هرة، أو تضرب علبتين سجاير في اليوم، أو تتوقف عن الصلاة إلا في موسم الامتحانات، أو تطلق لحيتك وترتدي جلبابًا قصيرًا، أو إذا كنت فتاة ترتدي النقاب أو ترتدي ملابس تغطي جسمك وتكشف عن مفاتنه، وما إلى ذلك من أشكال التمرد التي يناقشها الخبراء في برامج التليفزيون ويأكل الصحفيون على قفاها عيشًا في الصحف والمجلات وتساعد أساتذة علم الاجتماع في ترقياتهم الدورية، لكنها في نفس الوقت تظل موجودة ومسموح بها عكس غيرها من أشكال التمرد الفعلي على العبودية والقولبة والكلام المعاد المكرر والكذب والزيف وأكل الحقوق والنفاق والتسطيح والتلاعب بالدين والتطرف والانحلال والظلم والاستعباط والموالسة، وهي أشكال للتمرد سيقول لك الجميع إن عاقبتها ما يعلم بيها إلا ربنا وإنها يمكن أن تذهب بك إلى السجن أو تجعلك منبوذًا أسريًا أو اجتماعيًا أو ناكرًا الجميل الذين صرفوا دم قلبهم عليك أو متطاولًا على أساتذتك أو كافرا أو ما بتحبش مصر وما بتصونش النعمة التي أنعمت بها عليك. لكن هذه الأشكال من التمرد النبيل هي التي ستجعل منك بني آدم بحق وحقيق وحتى لو خفضت من حظك في الدنيا سترفع يوم القيامة من قدرك عند الله عز وجل الذي ندعي كلنا أننا نؤمن به وننسى أنه خلقنا أحرارًا لا يجب أن نستعبد أو نستعبط أو نورث أو نأكل على قفانا، ثم إنها وقبل يوم القيامة ستجعلك قادرًا على أن ترد بقلب جامد على أي حيوان في أي جنينة حيوانات ينطق ويقول لك ببجاحة «تفتكر في فرق بيني وبينك؟».

لا تدعني أتغابى عليك!

حتمًا ولزمًا أنت تحفظ عن ظهر قلب ذلك المشهد الشهير في الأفلام العربية الأبيض والأسود حيث يقف البطل ثائرًا يحاول التملص من رفاقه الذين يمنعونه من الوصول إلى شخص آخر يصرخ البطل فيهم وفيه «سيبوني عليه أنا هاوقفه عند حده»، وفور أن يصل إلى خصمه يقف أمامه بكل احترام ليقول له بصوت حازم ومهذب في نفس الوقت «إنت يا أفندي يا محترم إزاي تتجرأ وتعمل كده.. إنت نسيت إن في أصول.. أنا لازم أعرفك مركزك»، فيرد عليه خصمه بصوت لا يقل رقة «من فضلك احفظ أدبك.. أنا عارف مركزي كويس.. الدور والباقي عليك يا عديم الذوق.. إنت فاكرها إيه.. عافية»، ثم تنفض هذه الخناقة القليلة الأدب بمعايير ذلك العصر بمجرد أول صوت تهدئة يذكر الاثنين بمركزيهما «يا أفندية ما يصحش كده.. دي مش أصول». ستضحك الآن لو رأيت هذه الخناقة في فيلم عربي أو حتى في الشارع، فلم يعد هناك أصول بعد أن تم بيع كافة الأصول على يد الدولة ليس لمن يدفع أعلى سعر بل لمن يدفع أعلى نسبة.

بعد مرحلة الأصول هذه جاءت ثورة يوليو لتكرس شكلًا اجتماعيًا جديدًا لا يعتمد على الأصول بقدر ما يعتمد على الوصول، لتصبح جملة التهديد في الخناقات «إنت مش عارف إن أنا واصل وممكن أضيعك»، وأصبح من العبث أن نسمع سؤال «إنت فاكرها إيه.. عافية؟»، لأنها فعلًا أصبحت عافية، ولم يعد من اللائق أن تضيع وقتك في الخناق مع فلان من الناس، فالأسهل أن تكتب فيه تقريرًا أو تشكه بلاغًا بأنه عميل أو خائن أو متمرد أو إخوان أو شيوعي أو وفدي أو رجعي وهناك سيشدونه إلى المركز لكي يعرفوا مركزه في التنظيم السري الذي هو عضو فيه، وإن اعترف أو لم يعترف فهو في كلا الحالتين ذاهب إلى المعتقل ليعرفوه هناك مركزه.

وعندما جاء الرئيس اللذيذ المنعش أنور السادات ليعلن العودة إلى الأصول وأخلاق القرية والبعد عن أخلاق المركز والبندر، ويقول للناس بالفم المليان من لم يغتني في عهدي فلن يغتني، صار من العبث أن تقضي وقتك في الخناق أو حتى ترهق نفسك بكتابة التقارير، بل صار الأجدى والأبدى أن تفتح مخك وتشغل الفهامة وتسلك أمورك وتشوف نفسك وتسمع وتطنش وتتمحلس وتتملحس وتسايس وتوالس وتصهين وتتحليط، وصارت البلاد سيركًا مفتوحًا للحواة ولاعبي الثلاث ورقات وخبراء التسليك والدهبزة والطرعمة، فصار الحرامي شاطرًا والفاسد مخه مفتح والنصاب ابن حنت والكذاب غويطًا والداعرة عايقة والقواد أخلاقه سياحية.

وعندما رحل السادات قبل أن يرى حلمه باغتناء شعبه كاملًا، وجاء الرئيس مبارك لم يشهد المجتمع سياسة اجتماعية واضحة

تسود بين أفراده، كما أن عهده لم يقف ضد السياسات التي سبقته بشكل جاد سواء في عهدي ناصر أو السادات، بل رفعت الدولة يدها عن كل شيء، قررت أن تترك الناس لمصيرهم بدعوى أن هذه هي لغة العصر وأن عصر تدخل الدولة قد انتهى من العالم كله ناهيك عن أنه لم يجلب لمصر إلا كل شر وسوء، وهنا قرر كل فرد في مصر أن يتصرف في حياته بالطريقة التي تروق له بعد أن شرعت له الدولة حق الاجتهاد وأنابته عنها في تسييس أموره، فالذي يستطيع أن يمشيها عافية لم يتأخر، لكن العافية أصبحت ترتدي قفازًا وتحتمي بالمحامين ورجال القانون بل ورجال الأمن فصارت عافية مقنعة. أما الذي يرغب في تستيف الأونطة جوه الشنطة، صار من حقه أن يفعل لكن من غير ما ياكل لوحده أحسن يِزوَر، ومن غير ما تفوح رائحته أحسن تُرفع عنه الحصانة، وأصبح معلومًا للناس بالضرورة أن أولي الأمر لا يلقون بالًا لكلام الصحافة ولا لصراخ المعارضة، وأنهم يتحلون بعناد في مواجهة حملات النقد بعد أن اكتشفوا أن خطأ سابقيهم هو تضييع العمر في الرد على المنتقدين وقمعهم، وأن الأفضل هو أن تتبع سياسة الطناش فتترك من يريد يقول ما يريد ما دمت تفعل ما تريد، وهنا ظهرت أخطر خاصية اجتماعية في تاريخ مصر الحديث، ألا وهي ظاهرة التغابي، فالسالك في هذا العصر هو الذي يتغابى أكثر ويهبر بقلب جامد أكثر مغطيًا نفسه بالأغطية القانونية اللازمة، تاركًا الحصانة تحمي ميمنته وعضوية الحزب أو اللجنة تحمي ميسرته والصحافة المأجورة تحمي مؤخرته.

وعندما يرى المواطن العادي كل ذلك ويعيشه ويصبح ويبات فيه بات هو الآخر يدرك رسالة العصر المبارك جيدًا: تغابى فأنت تعيش

في غابة لكن أنت مسئول عن نفسك، لو سلكت هنيئًا لك ولو وقعت ستدفع الثمن، المهم أن تطيل أمد فترة التغابي ما أمكن، وتخلص أمورك بمعرفتك، سواء كانت معرفتك هذه رسمية متمثلة في مسئول حالي أو سابق أو عضو برلماني أو عضو محلي، أو أهلية متمثلة في بلطجي أو عصبجي أو رد سجون، ويا سلام لو جمعت بين الاثنين، عندها ستنال السعد والوعد وسيخلع عليك الناس ألقاب هذا العصر التي يمدحون بها من هم مثلك «واد جامد.. فاقد.. قلبه ميت.. يفوت في الحديد.. يسلك في أي مصيبة.. ياخد حقه ناشف.. ما يسيبش حقه أبدًا.. يتغابى على أي حد»، هكذا صار التغابي فضيلة العصر الأكثر مبيعًا وانتشارًا، أولو الأمر يتغابون على الرعية مستخدمين خليطًا سحريًّا من القانون الملعوب فيه والعدالة الانتقائية والإعلام الموجه عن بعد والصحف القومية التي اختير لها رؤساء تحرير هم الأكثر تغابيًا على زملائهم وقرائهم والأغلبية البرلمانية المريحة والقمع منزوع الأظافر حينًا والمخربش أحيانًا.

ومن جانبهم الرعية يصمتون على تغابي أولي الأمر عليهم طالما أنهم يسمحون لهم في المقابل أن يتغابوا على بعضهم البعض في المواصلات والمحاكم وقضايا التركة والنفقة وإثبات النسب وطوابير الحكومة وطوابير العيش وقرص الزهر وأمام عربيات الفول وفي غرف النوم ومحاكم الأسرة وأقسام البوليس والحارات السد والبلكونات وجواز الصالونات والكاسيتات وبرامج التوك شو.

الذي يتغابى أكثر ينجز أكثر والذي يَنِخ أو يقرر أن يحفظ مركزه يؤكل فورًا ودون أن يثير شفقة أحد، حتى إن تغيير الحاكم لم يعد فقط هو حلنا الوحيد، وإنما حلنا الحقيقي يكمن في أن نأخذ فترة انتقالية

نتوقف فيها عن التغابي على بعضنا ويعود كل منا ليحفظ مركزه ومركز غيره ونوجد أصولًا جديدة غير التي تم بيعها حتى نمشي عليها ونذكر بها بعضنا في الخناقات ونحن نتغابى على بعض.

أليس كلامي للأسف صحيحًا يا عزيزي القارئ أم أنك ستعتبره تشاؤمًا ويأسًا وتشريحًا سلبيًّا للواقع، أرجوك رد عليا ولا تخدع نفسك، وما تخلينيش أتغابى عليك.

هل أنت مثلي؟

احذروا، كلمة خبيثة أخرى تتسرب داخل صحافتنا رويدًا رويدًا، ولعلنا نصحو ذات يوم فنجدها أمرًا واقعًا لا سبيل لدفعه.

عن كلمة «المثليين» أتحدث، وقد ألفيتها تُنشر في صحف المفروض أنها محترمة خلال تغطيتها لفوز الممثل العبقري شين بين بأوسكار أحسن ممثل عن دوره في فيلم «ميلك»، الذي جسّد فيه شخصية «الناشط الشاذ هارفي ميلك الذي دخل تاريخ الولايات المتحدة كأول سيناتور شاذ وأبرز مدافع عن الشواذ في العالم»، كان ينبغي أن تكون هذه صياغة الخبر بدلًا من استخدام كلمة «مثلي الجنس» التي قد يكون من حق الصحافة الغربية أن تستخدمها تماشيًا مع واقعها الثقافي والاجتماعي، لكن لا ينبغي لنا أبدًا أن نستخدمها لإضفاء طابع متسامح مع الشذوذ الجنسي الذي قد نقبل أن نختلف حول كونه جريمة أو مرضًا، لكن أظن أنه لا ينبغي أن نتسامح إطلاقًا مع كونه أمرًا مقبولًا ومسلمًا به.

قبل سنوات طويلة كنت أعمل في قسم إعادة الصياغة (الديسك) بصحيفة كان يرأسها مثقف محترم كان من أبنائنا في الخارج لسنوات

طويلة وعاد إلى الداخل بخميرة محترمة وذوق في اللبس ونبرات هادئة جعلتنا لا نضبطه أبدًا منفعلًا أو عرقانًا، إلا ذات مرة دخل فيها معي في خناقة حامية الوطيس بسبب المثليين.

يومها كنت قد ذهبت إلى المكتب وأنا «مطبّق» لأتمكن من اللحاق بمواعيد العمل المبكرة أكثر من اللازم، للأسف فشلت أربعة فناجين من القهوة و«خمستاشر» كوباية شاي في جعلي أمتلك اليقظة اللازمة للتحكم في انفعالاتي، مما جعلني أكتب تلك الكلمة الأبيحة التي نطلقها على الشواذ في الأحياء الشعبية أثناء صياغتي لخبر حول أول حالة زواج علني بين الشواذ في أمريكا، اندفع رئيسنا من مكتبه صارخًا وسط محاولة الجميع مسك أنفسهم من الضحك «افرض يا متخلف إنها اتنشرت كده.. أروح في داهية عشان خاطرك»، حاولت أن أشرح له أن «السب كونشس» بتاعي أو عقلي الباطن هو الذي سرّب الكلمة لأصابعي، ربما لتأثري بحادثة كنت قد حضرتها في اليوم السابق في سينما الكورسال ببولاق أبو العلا، عندما أمسك أهل الخير باثنين من الناشطين الشواذ في حمام السينما بعد تأثرهما بمشهد من فيلم «لغة الحب» الذي يعرفه رواد سينمات الدرجة الثالثة بوصفه الفيلم الوحيد الذي يظهر فيه نهد عار، على ما أتذكر كان النهد الأيمن أو الأيسر، لا أظنها ستفرق معك أو مع من يشاهد الفيلم الذي تعاملت معه الرقابة بتسامح غير مفهوم، باءت محاولتي لتفسير فعلتي بالفشل وكادت تتسبب بطردي من المكتب بوصفي أسيء إلى سمعته، أولاد الحلال تدخلوا وأقنعوا رئيسنا أن يسمح لي بتصليح خطئي، وأنا قبّلت رأسه معتذرًا ثم خطفت أوراق الخبر من يده وشطبت الكلمة الوقحة التي تبدأ بحرف ليس من أحرف الصفير، وكتبت مكانها

كلمة شاذ، ففوجئت به يصرخ «يعني جاي تكحلها تعميها»، نظرت إليه دون فهم وقلت قبل أن يظن من حولنا أنني كتبت كلمة قبيحة أخرى، «ما هوه كتبت شاذ بدل..»، وهو طفق يصيح «يا أخي بطلوا تخلف.. شاذ إيه.. اسمها مثلي الجنس»، فقلت غاضبًا «حاسب على كلامك.. يعني إيه مثلي.. أنا بميت راجل»، وقبل أن أطبق في زمارة رقبته أخذ يشرح لي وللواقفين أن كلمة الشذوذ تحمل موقفًا متعصبًا لا يليق بمثقف يؤمن بالحرية، وأنا رددت عليه بحدة قائلًا أن الحرية لا تعني أن نتسامح مع شيء يخرج على الطبيعة الإنسانية، وإلا فهل يسمح الغرب الذي يستشهد به بوصف العنصري أو النازي بأنه مجرد متشدد، وهو قال بحدة أنه لن يدخل معي في جدل بيزنطي وأنه من هنا ورايح لا بد أن نحذو حذو العالم المتقدم فنستخدم في صياغتنا كلمتي «مثلي الجنس» أو «مشتهي المغاير»، وهنا كفاني عم عبد النبي عامل البوفيه مئونة الرد، عندما اندفع بغتة من البوفيه وطفق يصرخ في رئيسنا «الكلام ده هناك يا باشا.. هنا بنسميه الملعوب في أساسه أو العجلة أو البطيخة أو البايظ».

فجأة تحول الموقف إلى اشتباك يدوي بين رئيسنا المثقف وعبد النبي الذي استمر في ترديد القاموس الشعبي السيموطيقي الذي يطلق على الشواذ في أحيائنا الشعبية، وللأسف انتهت الخناقة فجأة بانهيار عبد النبي بين يدي رئيسنا الذي أصدر قرارًا برفده، فانخرط عبد النبي في البكاء وهو يقول له «خلاص يا سعادة الباشا.. زي بعضه أنا مثلي بس ما تقطعش عيشي».

السباكون الجدد

من بين ظلمات اليأس تسطع دائمًا شمس الأمل لتذكر الإنسان بقدرة هذه البلد الولادة على الإدهاش، وأن مصر لسه بخير، وأن من سماها المحروسة لم يكن واهمًا، أقولها من قلبي الذي كاد اليأس يقتله، بعد أن قابلت أخيرًا في مصر سباكًا يفهم في السباكة.

«الله يبارك فيك. عقبال عندك. هذا من فضل ربي فقد صبرت ونلت. أعرفك عليه؟ لا أعدك. ما صدقت لقيته. مش مهم يكون حرامي، من زمان أحلم بسباك حرامي بس يفهم في السباكة، لأن ما سيسرقه أيا كان هو تسع ما دفعته على سباكين ما تعلموا السباكة إلا على قفا مواسيرنا وأكواع أحواضنا». كل هذه الجمل ظللت أرددها طيلة الأيام الماضية لكل من أعرف بحماس من حصل على فيزة كندا وفرحة من سمع أن الرئيس مبارك سيعتزل الحكم.

حتى لو اعتقدت أنني أهتم بسفاسف الأمور، فلن أدعو عليك غاضبًا بأن تدخل في تجربة سباكة في مصر لكي تقتنع بكلامي، ماتهونش عليا، فأنا أعرف أناسًا دخلوا هذه التجربة ولم يخرجوا منها حتى الآن، لا زالوا ينتظرون أن يفيء الله عليهم بسباك كالذي

رزقنيه، قبله كان السباكون يزورونني أكثر من أغلب أقاربي، بعضهم تزوج وأنجب على يدي، وبعضهم دفع مؤخر صداقه ورمى عياله على يدي أيضًا، حاصل جمع قيمة المواتير التي اشتروها لي يشتري موتورا للسد العالي ذات نفسه، أشتري الموتور من دول على أساس أنه إيطالي ثم يتضح بعد استخدام شهرين أنه نيجيري تجميع غانا، لا يرفع إليك مياهًا بل يرفع سكان الدورين الأرضي والأول الذين يهددونك بتحرير محاضر لأن صوت الموتور وهو شغال على الفاضي قال إيه يمنعهم من أداء واجباتهم الزوجية.

أبدًا لا تمتلك في هذه البلاد رفاهية التفتيش عن خطأ سباك لتحاسبه. السباكون كالرؤساء كل منهم يمشي على خطى سابقه بأستيكة، عندما يدخل إلى حمامك أو مطبخك سباك جديد وينظر إلى موضع تسرب المياه بإشمئناط ثم يقول لك الجملة الخالدة «لا مؤاخذة مين الحيوان اللي عمل العك ده؟» فاعلم رعاك الله أنك تدخل عهدًا سباكيًا جديدًا ستنقلب فيه على كل إنجازات العهد السباكي السابق، ستظهر لك عوراته ومثالبه وسيتضح لك كم كنت مخدوعا عندما ظننت فيه الخير، ستتمنى لو شاهدته الآن لتطبق في «جلدة» رقبته وتضع ماسورة السخان في.. عينه، ربما انتابك الحماس من فرط ما سمعته من وقائع تخريبه لسباكتك فتهم بالاتصال به لتعقد مواجهة تاريخية بينه وبين خليفته الذي ستدهش من ترفعه عن السفاسف وهو يقول لك «يا بيه خلاص عوضك على الله.. مانت كعيت اللي كعيته وخلاص.. حسبن عليه وسيبنا نشوف شغلنا».

الإصلاحيون الجدد من السباكين لديهم دائمًا مشاريع طموحة للتغيير، أبدًا لا يفضلون استخدام المسكنات، «بص يا باشا.. أنا

ممكن أحلها لك من غير ما نشتري حاجة جديدة بس هترجع أسخم من الأول»، يقولها ببصيرة عالم مستقبليات، تاركًا للقلق في عينيك البراح اللازم للتفاعل، مكتفيًا بعوامل حفازة كمصمصة الشفاه وتثبيت رأسه في وضع الأسف ورفع حواجبه حتى ترتطم بقورته، لا يتعجل سقوطك فالخبرة علمته أنك حتما ستسقط مغمغما «اللي تشوفه ياسطى». بنقاء متصوف سيقول وهو يلحق دمعة كادت تسبقه «إن كان عليا ما أكلفكش مليم بس إنت صعبت عليا.. تحب نشتري حاجة مصري زي اللي كانت راكبة ولا نجيب الأصلي بتاع بلده»، لو كنت في حالتك الطبيعية لرزعته قلمًا لأنه يهين ذكاءك بخيار كهذا، لكنك تضبط نفسك متلبسًا بارتباك بنت غلطانة تقف أمام دكتور الترقيع، وتقول له مغمغمًا «متهيأ لي بتاع بلده أحسن؟»، إخص، هل هذا أداء شخص صرف أهله دم قلبهم على علامه، لماذا أنت خجلان لأن لديك «كابنيه بيسرب أو حوض كوعه انكسر أو خلاط اختلط عليه الأمر»، لماذا لا تفرد جسمك وتتكئ على مخارج الحروف وتضع عينك في عينه فتحاسبه على كل سحتوت يريده، لماذا تترك نفسك ألعوبة تتقاذفها أيدي السباكين فإما يأتيك الفرج كما أتاني أو لا يأتيك أبدًا.

عفوًا. أستأذنكم في إنهاء المقال فورًا لكي أنجد زوجتي التي تصرخ لأن سباكة الحمام كلها ضربت.

لماذا خلق الله الذباب؟

في طفولتي كان السؤال المركزي الذي يحيرني هو «لماذا خلق الله الذباب؟»، وبعد أن كبرت ولم يعد عندي حيِّز للأسئلة التافهة، أصبح السؤال المركزي الذي أبحث له عن إجابة هو «لماذا خلق الله الحر؟». الغريب أنه برغم مرور السنين لم تتطور أبدًا الإجابة التي أسمعها من الجميع عن كلا السؤالين «العلم عند الله ياأخي»، ولم تتغير أبدًا الإجابة التي ينتظرها مني الجميع وهي أن أقول بتسليم كامل «حكمتك يارب».

وأنا والحمد لله على قولة أنا، لم ترحني أبدًا إجابة «حكمتك يارب» التي كان فمي يرددها، ليس لأن عقلي لم يهضمها، بل لأني لم أقلها مرة واحدة بصدق، ربما لأن الكائن الكامن بداخلي ممسوس بحيرة قد يراها البعض إبليسية مغرورة، وأراها أنا حيرة قدرية زرعها الخالق بداخلنا جميعًا، وأمرنا ألا نعطلها أبدًا لكي تكون سرابنا الذي نحسبه ماءً أثناء سيرنا الحثيث «في دايرة الرحلة»، لكننا قررنا أن نغير سنة الله في الكون ونرتاح من تعب حيرتنا، فقمعناها بدعوى أن الإيمان تسليم لا سؤال، مع أن الإيمان سؤال لا ينقطع، وما مكافأته إلا إلهام التسليم لحظة طلوع السر الإلهي.

أقول ما بداخلي دائمًا فتندلع نيران الغضب التي تتصور نفسها أحرص على العبد من خالقه، والتي تظن أنك كلما صرخت بعجزك أكثر اقتربت إلى الله أكثر، وأنك كلما افترضت في نفسك الجهل زاد علمك بالله، مع أنني لم أصدق أبدًا أن الله عز وجل الذي لا يبخل على عباده برحمته يمكن أن يبخل عليهم بحكمته، صحيح أنه جعل الحكمة ضالة عبده المؤمن، لكنه لم يحجبها عنه، بل جعل لذة الحياة في عناء البحث عنها، وجعل حكمته مبذورة مبذولة في كل مكان من كونه الفسيح وموزعة على عباده أجمعين، ومن أراد طلبها أنّى وجدها فهو أحق بها، هذا إن وجدها قبل أن يحل موعد رجوعه إلى نقطة البدء الترابية.

«لماذا خلق الله الذباب؟ لماذا خلق الله الحر؟ لماذا خلق الله الأصناف الرديئة من البشر؟»، كلها أسئلة أصبحت أمتلك لها إجابة أحب أن أصفها بأنها قاطعة، مع أنها قد لا تكون قاطعة أبدًا، لكنني أحب أن أراها كذلك رغبةً في إغلاق ملفاتها، وإدراكًا لحقيقة أن الأسئلة التي لا أعتقد أنني سأجد إجابات قاطعة لها قد تغيرت وتبدلت وأصبحت أعقد بكثير «هل تحين ساعة الفراق قبل اكتمال الحلم.. ولماذا لا يكتمل الحلم أبدًا ولا يكف عن التكاثر المتوحش الجميل وهل نرتاح حقًا لو اكتمل أم أننا سنحن لحظة اكتماله إلى حلم جديد. لماذا كلما اقترب الإنسان ابتعد وكلما ابتعد ظل يحلم بالقُرب.. ولماذا لا يتفاءل الإنسان بالخير لكي يجده.. هل لأنه جرب أن يتفاءل بالخير فلم يجده.. أم لأنه لا يريد أن يصدق أن هناك دائمًا منعطفات لا بد أن يمر بها راضيًا لأنه لم يخلق الله أبدًا لأحد من عباده طريقًا دون منعطفات.. لماذا يدرك الناس جميعًا سبيل

خلاصهم لكنهم يَجبُنون عن اقتحامه.. لماذا يُعطى الدين الكامل لأنفس ناقصة.. وهل سيدخل النار من أخذ بأسباب الله وسننه في الكون لمجرد أنه لم ينطق بالشهادتين.. وهل سيشم رائحة الجنة من نطق بها بينما أفسد في الكون وأفسد الكون».

أسئلة تثقل القلب، لكن ما يجعلها محتملة ثقتي أن الله عز وجل سيرشدني يومًا إلى إجابة لها مثلما أرشدني إلى إجابة لأسئلتي الطفولية التي كنت أظنها معقدة ولا سبيل للوصول إلى إجابة لها.

ها أنا ألجأ مع تغول تلك الأسئلة يومًا بعد يوم، إلى إدخالها مؤقتًا في ثنايا إجابتي التي سكنت إليها وهنِئتُ بها «خلق الله الذباب والحر والبشر الذي يزيد من وطأة الحر وغتاتة الذباب، وفوق كل هذا خلق الأسئلة التي تثقل القلب فتهون إلى جوارها وطأة الحر وغتاتة الذباب وخرتنة البشر، فقط لكي يدرك الإنسان أن تسليمه بنقص الحياة أجدى من طلبه العبثي للكمال، وأن الحياة لن تبلغ الكمال إلا إذا بلغت نهايتها».

حكمتك يارب.. أين أودعتها يا إلهي، وهل نهتدي إليها يومًا ما، ونهنأ بها ولو لحظات، قبل أن تسترد وديعتك.

.. والأجازات أيام ممتازة!

هذا أوان الجد فاشتدِّي زِيَم.

ليس هذا أوان أن أحكي لك من هي زيم التي يخاطبها الشاعر العربي، فأنا مشغول الآن بأن أتهم حكومة الحزب الوطني المبارك بالتفريط في الثوابت الوطنية، لأنها قررت أخيرًا إعلان يوم تحرير طابا عطلة رسمية للمدارس والجامعات، لا تظن أني ساخط لأنها لم تعمم العطلة على كافة فئات الشعب، أو لأنها تذكرت إصدار هذا القرار التاريخي بعد عشرين عامًا من تحرير طابا وتحولها إلى واحة سياحية خلابة لا يجرؤ ثمانية وتسعون في المائة من المصريين على أن يعتبوها، وإن جرؤوا على ذلك لما استطاعوا إليه فلوسًا، لا يا سيدي أنا ساخط على الحالة الوطنية المزرية التي وصلنا إليها، بحيث أصبحنا نأخذ أجازة في يوم ستة أكتوبر المجيد، ويوم تحرير سيناء الخالد، ويوم تحرير طابا العظيم، ونكتفي بذلك فنسقط حقنا الوطني في الاحتفال بعيد تحرير العريش وعيد تحرير شرم الشيخ وعيد تحرير نويبع وعيد تحرير فايد وعيد تحرير رأس سدر وعيد تحرير راس محمد وعيد تحرير باقي الرءوس التي لم يعرف أسماء

أصحابها وعيد تحرير مصر من الهكسوس وعيد تحرير مصر من الفرس وعيد تحرير مصر من الرومان وعيد فتح العرب لمصر وعيد قفل العرب من مصر وعيد فتح مصر للعرب، أرجو ألا يأخذك الاستظراف هنا فتقول أننا لا بد أن نحتفل بالمرة بعيد تحرير سعر الصرف وعيد تحرير عتبة عتبة، قلت لك منذ البداية: هذا أوان الجد فاشتدي زيم، لذلك خليك جادًا وقل لي إذا كنت تقبل على نفسك كمواطن بأن تأخذ أجازة في عيد ستة أكتوبر وعيد سيناء ويأخذ أولادك الذين لم يصبحوا عاطلين بعد أجازة في عيد تحرير طابا، فلماذا تتنازل عن حقك في كل أعياد تحرير المناطق السالفة الذكر، إلا إذا كنت ناويًا على التخبيط في حِلَلِ الجغرافيا فتقول مثلًا أن تلك المناطق ليست مقدسة، أو تُخَبِّط في حلل التاريخ وتتهم تلك المناسبات بأنها غير مهمة تاريخيًا.

أرجو ألا تكون من الخنيقين هواة النكد الذين تأخذهم العزة بالإثم مشوارًا لكي يسألوا عن حكمة أن نأخذ أجازة في يوم تحرير جزء من أرضنا على أيدي أبطال استشهدوا لنزيد رصيدنا من الأجازات، أو تكون ممن يتمادون فيسألون لماذا لا نتخذ من أيام تحرير أرضنا فرصة للعمل على تحرير عقولنا من أسر الخرافات والفهم الخاطئ للدين والعبودية لغير الله، دعني أذكرك أننا لو فتحنا الباب لأسئلة كهذه لجرتنا إلى أسئلة أكثر نكدًا وخنقة من عينة «طيب لماذا نأخذ أساسًا أجازة في يوم مولد نبينا صلى الله عليه وسلم ثم في يوم هجرته الشريفة ونحن أبعد ما نكون عن سيرة نبينا وخلقه وعقله وتسامحه وجهاديه الأكبر والأصغر، ولماذا لا يحب كثيرون منا أن يشتركوا مع بعض إخوتنا الأقباط سوى في الأجازات والتعصب والضيق

بالكتابة والفن، أرجوك لا تقلب دماغنا بكلام من نوعية أن الأعياد الدينية للمسلمين والمسيحيين تكفي وزيادة كأجازات، وأنه ينبغي فورًا إلغاء تلك الأجازات التي ابتدعتها هذه الحكومات المتخلفة بدعوى الاحتفال بانتصاراتنا وتكريم العمال والجنود وضباط الشرطة وربما قريبًا حماة العدالة وملائكة الرحمة والشياطين الحمر، أرجوك لا تصدعنا بكلامك البايخ عن أنه لا أمل في أي خروج لنا من وكستنا المبينة ونحن نخرج من أجازة إلى أخرى، لا تقل هذا وإلا كرهناك ولعناك وتففنا على اليوم الذي شفناك فيه، يا أخي خليك محضر تخلف ورحرحة وطرمخة وابتدع لنا أعيادًا أخرى نأخذ فيها إجازات لندعو الله ألا يسيئك ويسيئنا بنهضة أو تقدم أو تغيير، يعني مثلًا أليس من الظلم وقلة الإنصاف ألا نأخذ أجازات في عيد ميلاد الرئيس مبارك وفي ذكرى تعيينه نائبًا للرئيس وفي عيد توليه الحكم، أليس من الجحود ألا نأخذ أجازة في عيد ميلاد السيد جمال مبارك باعتبار كونه جليًا هو الذي سيكمل معنا وعلينا المشوار، وإذا كان هذا الاقتراح سيفهم على أنه تزلف مبالغ فيه فلماذا لا نكتفي بنيل أجازة في ذكرى توليه لجنة السياسات التي غيرت وجه مصر المعاصرة وفتحت بطنها، ولعل هذه الأجازات تفتح شهيتنا أكثر فنأخذ أجازة في ذكرى كل إنجاز تاريخي حققه سيادة الرئيس، كأقل تقدير يستحقه منا لأنه منذ توليه الحكم جعل أيامنا كلها أعياد ومعظمها أجازات.

هَاه؟

حريقاااااااه

المختصر المفيد: إذا كنت تقدر رجال المطافي في بلادنا قيراطًا أستحلفك بالله أن تقدرهم أربعة وعشرين قيراطًا على الأقل. أقولها بعد أن كنت شاهد عيان على عملية إطفاء حريق خطير شب على حين غرة بفندق قصر السلاملك بحدائق المنتزه بالإسكندرية وكان يمكن لو لا لطف الله أن يلتهم أثرًا بالغ الجمال هو قصر السلاملك الملكي الذي تحول إلى فندق بديع منذ سنوات، ويمتد إلى أشجار حدائق المنتزه الغنّاء فيقضي عليها، فضلًا عن القضاء عليّ أنا شخصيًا، وأترك لذوقك تقدير خسائر ذلك على شخصك الكريم الذي لن تطيب له الحياة بدوني، أو حتى بي وأنا محروق وحالتي بالبلاء.

عندما أيقظتني زوجتي فزعة كانت الساعة يجي لها الثامنة والنصف صباحًا، كنت يادوبك قد رحت في النوم قبل ساعتين، وهي كانت قد صحت قبلي بدقيقة على أصوات هادرة ظنتها في البداية وبحكم أننا نسكن في القاهرة قريبًا من مجلس الشعب «إما مظاهرة أو وقفة احتجاجية»، تحاسبنا سويًا بعد ذلك على هذا التصور «وقفة احتجاجية إزاي في المنتزه.. إذا كانت تذكرة دخول المنتزه

بستة جنيه على الراس» وهي ردت بمنطق مقنع «مش ده سبب كافي لعمل مظاهرة»، للأمانة عندما زغدتني لأول وهلة ورأيت فزعتها وسمعت أصوات الهدير تنبعث من الخارج ظننت أن الملكية قد عادت فجأة ودون الحاجة إلى مسرحية انتخابات ٢٠١١ وأن لجنة تصفية الإقطاع داهمت الفندق لتحاسب كل أبناء العامة من أمثالي الذين ساهموا في جريمة تدنيس الحرم الملكي وبدأت في إعادته ليكون قصرا ملكيا على الفور، لولا أن زوجتي قضت على الفكرة بهتافها الحاسم «الحق يا حبيبي.. المبنى اللي جنبينا بيتحرق»، ومع أنه كان من المفروض أن أرد تحية الحب لها، إلا أنني وكما يليق بقائد مسيرة يعرف أولوياته جيدًا طرت إلى الشباك وأزحت ستارته لأرى عمود دخان أسود ضخم ممتزج باللهب يشق عنان السماء منبعثًا من قاعة المؤتمرات المجاورة للفندق، وسيارتا مطافئ تتبعان لنقطة الإطفاء الموجودة في المنتزه بدأتا في التعامل معه، كدت أتخذ موقفًا بطوليًا بلفح أسرتي على كتفي والتعثر بهم على سلالم الفندق قبل أن نجري سويًا على الأشواك كما فعل عبد الحليم حافظ في ذات المكان يومًا ما، لولا رؤيتي لذلك الرهط من البشر الذي تجمهر ليتفرج على الحريق، إشي ضباط شرطة ميري وملكي على موظفين وعمال وفلاحين على متنزهين من مختلف الأعمار، كل فئات الشعب كانت ملتحمة ببعضها أمام الحريق، بينما وقف الخواجات الأندال من نزلاء الفندق وفندق فلسطين المجاور على مبعدة منه كما علموهم في المدارس، قلت لزوجتي التي كانت تنتظر قراري التاريخي «يعني إذا كان هؤلاء غير خائفين من الحريق وهم واقفون وسطيه فلماذا نخافه ونحن أبعد منهم إليه»، موظفو الفندق

الذين تعاملوا مع الأمر باحتراف وهدوء يستحقان التقدير طمأنوني مرجعين ضخامة عمود الدخان إلى كون القاعة خشبية لم تقاوم تأثير الماس الكهربائي، ووعدوا أنه في حالة وجود تداعيات خطيرة سيتم إبلاغنا على الفور، وأنا أعجبتني نبراتهم الواثقة، ونبرتي الواثقة بعد غلق السماعة أعجبت زوجتي فقررنا أن نكتفي بمتابعة الموقف والابتهال إلى الله أن يديم نعمة سكون الريح لكي لا تنتقل النيران إلى الأشجار المجاورة للمبنى أو في أحسن الأحوال يتغير اتجاه الدخان من البحر إلى مناخيرنا.

لا تظلمنا أرجوك، نحن لسنا أسرة متبلدة المشاعر لأننا لم ننفد بجلدنا من المكان برمته وهبابه، نحن فقط رأينا ما هو أسوأ أيام عدوان إسرائيل الوحشي على لبنان في عام ٢٠٠٦، فضلًا عن مجموعة كوارث متفرقة رآها العبد لله طيلة حياته وأصبحت زوجتي تحفظها عن ظهر قلب من فرط ما حكيتها في موضعها وغير موضعها، وأنتظر أن تبلغ بناتي السن القانونية ليشيلوا عبء سماعها، لأكون بعون الله لم أنشئ فقط أسرة، بل وحدة إدارة أزمات وخلية تصدي للكوارث، وأنت تعلم أن ذلك في مصرنا المباركة أهم بكثير من جهاز البنت وشقة الوله.

.. وانتبهنا بعد أن شب الحريق، وأفقنا ليت أنّا لا نفيق. وإذا عربات المطافئ قد صارت خمسة يحيط كل منها بجزء من مبنى قاعة المؤتمرات والكازينو الملاصقين لفندق السلاملك، وإذا المتجمهرون أمام الحريق قد ناهزوا المائتي بني آدم، وإذا برجال المطافئ وقد لاصوا بعد أن قرر المتفرجون فجأة أن ينتقلوا إلى موقع القيادة، بدأ الأمر برَجُلي إطفاء يمسكان بخرطوم المطافئ متجهين

نحو ما يظنان أنه أولى بالإطفاء الفوري، وإذ «فجأتن» صرخ فيهما رجل لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد وأخذ يشد خرطومهما في الاتجاه المعاكس، «هنا هنا ياعم إنت طفي الحتة دي الأول»، نظر إليه الاثنان ولسان حالهما يقول «هو إنت مين أساسا»، وقبل أن ينبسا ببنت شفة علا صوته بالصراخ «باقولك تعال الحتة دي الأول» فلفت انتباه الحضور الذين سلقاهما بنظرات اتهام بالتقصير لرفضهما إطفاء الحتة دي التي لم تكن سوى مدخل باب القاعة الذي يعلوه سطح من مادة قابلة للاشتعال، ومع أنني لست خبير مطافئ، لكنني تعلمت من الكام فيلم أمريكاني الذين شاهدتهم في موضوع الحرائق أن هناك ما يسمى بقلب الحريق وأنه دائمًا الأولى بالإطفاء، وأن انجرار رجلي المطافئ وراء صرخة الأخ إياه ليس سليمًا، لكنهما ذهبا معه مسلمين له القياد وأنفقا كميات من الماء وفترة من الوقت من أجل إطفاء «الحتة دي» التي يمكن لأي مصاب بالرمد الحبيبي أن يرى أن إطفاءها مستحيل طالما لم تتوقف النيران التي تغذيها عن التصاعد من قلب المبنى.

ما قام به المشاهد الكريم من قيادة تطوعية لعملية الإطفاء استهوى العديد من الواقفين في المكان، فتحول إطفاء الحريقة فجأة إلى فقرة «ما يطلبه المستمعون»، كل واحد من المتجمهرين يتطوع بتوجيه رجال الإطفاء إلى الحتة التي يجب أن يطفيها الأول، بينما عمود اللهب يتصاعد من الداخل، ولأنني كما تعرف أهتم دائمًا بسفاسف الأمور، فقد كان ما يشغلني في تلك اللحظة أن لا يأتي إلى المكان المزيد من أفواج السائحين الذين شاهدتهم بالأمس يملئون فندقي فلسطين والسلاملك، «اللهم أخرهم حيث كانوا حتى تنتهي

هذه الغمة فالبلد ليست ناقصة فضائح وكفاية الموجود أولريدي»، ببساطة أي سائح يشاهد ما شاهدته لا بد أن يسأل نفسه عن السر الذي يجعله يضحي بروحه في بلد لا يعرف الناس فيها أبسط قواعد إطفاء الحرائق، لم يكن أحد منهم سيستوعب مشهد أن يكون هناك عشرون صابرون يحاولون إطفاء النيران ومائة يقومون بقيادتهم، لم يكن أحدهم ليفهم أن تلك الأصوات المتداخلة المتعالية «هنا هنا.. خش على الحتة دي.. يا جدعان مش كده.. افتح الشباك ده.. إنت يا زفت إنت.. يلعن أبو كده.. يارب استرها.. أيوه يا أخي.. الحق النار طلعت تاني.. يادي النيلة.. النار هتمسك في الشجر» ليست تعويذات لإطفاء الحرائق بل هي أصوات تعكس ثقافة الهرجلة التي تمنعنا حتى الآن من أن نصل إلى قلب الحريقة أو قلب الفساد أو قلب الاستبداد، والشيء الوحيد الذي نجيب قلبه هو قلب أي راغب في الإصلاح حيث نتهمه بالسعي لقلب نظام الحكم.

عايز الحرق ولا ابن عمه؟ وأنا أتابع عملية الإطفاء من مكمني في بلكونة السلاملك، فهمت لماذا احترق مجلس الشورى بتلك الصورة المحزنة، ولماذا يصاب رجال الإطفاء الأبطال في كل حادث إطفاء حريق، ولماذا يراهن الفاسدون على نجاح الحرائق الذكية التي تختار دائمًا أماكن اندلاعها لتأكل في بطونها ملفات الفساد وأحراز القضايا، فإذا كان إطفاء حريقة مثل هذه تعتبر نص كم مقارنة بحرائق غابات كاليفورنيا واليونان قد استغرق كل هذا العناء وشهد كل هذه الهرجلة، فليكن الله في عوننا جميعًا إذا شهدنا حريقة حقيرة من اللواتي تعجز الدول المتقدمة عن إخمادها بسهولة. أما الشيء الوحيد الذي لن أفهمه أبدًا فهو يخص الباشا المهم أبو بدلة ميري خارجة لتوها من

مغسلة المروة المجاورة لبيته، والموجود بالأمانة في المكان من أول لحظة، لماذا انتظر ساعة كاملة من الهرجلة قبل أن يقف وقفة الأسد الهصور وسط المكان مشيرًا بجهاز اللاسلكي إلى الجموع وصارخًا بعد فوات الأوان «مش عايز أشوف حد في الحتة دي هنا خالص.. كله يفضي المكان عشان الناس دي تشوف شغلها»، لينظر إليه جميع المتجمهرين بإعجاب وعلى رأسهم الراجل القيادي بتاع الحتة دي هاتفين «الله ينور على سيادتك يا باشا.. عين العقل».

ربنا يستر علي ولا يانا.

ممكن أشترك في البرنامج؟

التقدم بعيد كل البعد عن شنب أمة لا يسمع أبناؤها بعضهم بعضًا. هكذا أقول كلما حضرت نقاشًا في ندوة أو برنامج أو قعدة قهوة أو صالون فكري أو صالون حلاقة. يبدأ النقاش وينتهي دون أن يعرف أحد لماذا بدأ وعلى ماذا انتهى وما الذي دار في مجراه. قابل أي شخص راجع من ندوة، أي ندوة، وأنا مستعد هنا للوقوع في فخ التعميم بمحض إرادتي، اسأله «أخبار الندوة إيه؟» سيجيبك إن كان راضيا «تمام»، وسيجيبك «زي الزفت» إن كان مؤدبا، اسأله ثانية «تمام ليه أو زفت ليه؟» وابقى قابلني لو قال لك أسبابًا مقنعة، لا تلمه فالعيب ليس في تركيزه بقدر ما هو في طريقة إدارتنا لحواراتنا بحيث نبدأ من نقطة وندخل في أخرى بعيدة عنها لننتهي في نقطة لا يعلمها إلا الله، أحيانًا أتخيل أن لسان المتكلم يدوخ من فرط لفه بين تداعيات من نوعية «ده يفكرني بكذا وأذكر هنا وأذكر فيما أذكر ومن ناحية أخرى»، فلا يرتاح إلا عندما يتوقف صاحبه عن الكلام ليشرب شوية مية يمسك خلالها لسانه بطنه وهو دايخ سائلًا «لا إله إلا الله.. هو أنا فين.. هنوصل لب الموضوع إمتى؟».

في العالم المتقدم يبدأ الأوادم حواراتهم للوصول إلى نقطة تفاهم أو حتى تحديد للخلاف، بينما لدينا نبدأ عادة حواراتنا من نقطة اتفاق نفترضها لننهيها بقطيعة نهائية أو فضيحة تسير بذكرها الركبان، و«ياحبزقا» لو كان ذلك على الهواء مباشرة. كثيرًا ما أشارك في برامج تلفزيونية فأكتشف أن أمل المذيع يخيب عندما يجدني أتفق في الرأي مع باقي الضيوف فينظر إلى المعد في الكواليس نظرة وعيد لأنه لم يحسن اختيار ضيوفه الذين جاءوا هنا ليتفقوا مع بعضهم، «طب ما كانوا يعزموا بعض على العشاء ويسيبونا نختار ناس يسخنوا الحلقة شوية».

في برامج أخرى بضم الألف وليس بفتحها إلا إذا أصريت، أُصعق برؤية مشاهدين يتصلون على الهواء ليبدأ الواحد منهم كلامه بتحيات يكرها الواحدة تلو الأخرى منتظرًا عشرات الثواني ليسمع الرد على كل واحدة منها «آلو سلامو عليكم.. مساء الخير.. كل سنة وانتو طيبين.. إزاي حضراتكو.. منورين الشاشة.. أنا معجب بحضرتك.. وعايز أحييك وأحيي ضيوفك»، ثم يختم التحية بالسؤال الخالد «ممكن أشترك في البرنامج»، بالطبع لا ينبهه المذيع أو المذيعة إلى أنه غبي جدا لأنه لا يدرك أنه فعلًا اشترك في البرنامج وأضاع من وقته دقيقة كاملة في ترحيبات عبثية بلهاء وبعد أن يحصل على الإذن بالاشتراك في البرنامج، يستجمع قواه ليقول بثقة «أنا أحب أختلف مع الرأي اللي قاله الأستاذ فلان»، تتركز الكاميرا على رأي الأستاذ فلان الذي سيختلف معه المشاهد ويبدأ المتصل في الحديث لتكتشف أنه يكرر كلام الضيف بحذافيره، وأن الرأي الذي يختلف معه هو رأي حد ثالث أورده الضيف وبدأ في تفنيده، لكن السيد

المختلف نظرًا لكونه مشغل الريدايل على أرقام البرنامج لم ينتبه أساسًا إلى ما يقال ومن الذي يقوله، ترى علامات التحفز تظهر على وجه الضيف خصوصًا في حالة كونه «ضيف خام غير مدرب على البرامج»، فينظر مستغيثًا إلى المذيع الذي يفكر وقتها في عدد الدقائق التي تبقت على انتهاء البرنامج، أو في وجبة «تكا جريل» التي أحضرها الإنتاج ليأكلها في الفاصل، يبتسم له مطمئنًا بأنه سيحصل على فرصته في التعليق، يفاجأ الضيف بأنه متهم بكراهية الإسلام لأنه أورد رأيًا ضد الإسلام، وتخبط فيه جمل من نوعية «مايصحش تقول كده يا أستاذ»، أحيانًا يكون المذيع منتبهًا يقظ الضمير فيسأل المتصل «حضرتك واضح مش متابعنا من الأول»، فيرد ببساطة «معلهش اصلي لسه فاتح التلفزيون»، ليقضي الضيف المغدور بقية البرنامج يحسس على كل كلمة ويوضح موقفه ويشرح منطقه، فتعد وراءه ووراء غيره من ضيوف كل البرامج والنقاشات والندوات جملًا تضيع أغلب حواراتنا فيها «أنا لسه قايل الكلام ده.. ده نفس الكلام اللي قلته..على فكرة إنت ما فهمتش قصدي.. أنا كنت عايز أقول.. اللي خلاني أقول كده هو.. يا عم اسمع اللي باقولك عليه.. برضه مش عايز تفهمني».

كل هذا واسمنا بنتحاور ونتناقش ثم نسأل لماذا لا نصل من وراء ذلك إلى أي نتيجة، بينما نحن في حقيقة الأمر بنغني ونرد.. ياريت على بعض بل على أنفسنا فقط، وهو أمر مستحب في الحمامات وليس في الحوارات.

وَطي و.. اقفل!

هاهي الأيام قد أفقدتني الكثير من خيالاتي الجامحة وذاتي المتضخمة وآمالي العريضة. فهل أملك إلا الحمد والشكر.

لم يعد بلوغ المرام في مصر مقترنا لديّ بتداول السلطة أو سيادة القانون على رقبة الكل أو إيمان الناس بالعلم كسبيل للخلاص. الأمل الذي أحيا بنوره الآن هو أن يأتي اليوم الذي أشاهد فيه برنامجًا تلفزيونيًا لا يقول فيه المذيع لمواطن متصل «من فضلك وطي صوت التلفزيون وإنت بتتكلم»، عندما يحدث ذلك فقط سأشعر أننا وضعنا أقدامنا كأمة على بداية طريق التغيير.

لا تقل لي أنك تظنني أهزر، وأنك لا يفور دمك ويتعكر صفوك عندما تشاهد برنامجًا مباشرًا يتجرع مقدمه مهما علا نجمه مهانة أكل العيش ليشترك في حوار عبثي يكرره كل يوم هو وزملاؤه في كافة البرامج دون جدوى، «سلام عليكم.. صدى صوت.. ممكن أشترك في البرنامج.. صدى صوت.. اتفضل يافندم بس ممكن توطي صوت التلفزيون وتسمعنا من التليفون»، دائمًا تسود لحظة صمت لدى المتصل قبل أن يرد الرد الأثير «هه؟ إزاي؟»، يعيد المذيع طلبه ثانية،

فيليبه متشككًا في إمكانية خروجه من جنة الأثير. وهكذا، احسب عدد الدقائق التي تضيع كل يوم من كل برنامج في تلفزيوناتنا لتفهم حالتي وأنا أهري وأنكت سائلًا نفسي كيف يمكن أن يقتنع بالحرية كسبيل للخلاص من لم يقتنع بعد عمر من البث المباشر بضرورة خفض صوت التلفزيون قبل أن يقول كل مرة «آلو.. صدى صوت.. سلام عليكم.. صدى صوت. ممكن أشترك في البرنامج.. صدى صوت».

هل أنا محبكها حبتين؟ ربما، ما الذي يضايقني أن مواطنًا صالحًا يحب أن يسمع صدى صوته على الهواء وهو يقرأ اسمه على الشاشة مكتوبًا ببنط لم يره طيلة حياته، ومذيع أو مذيعة يقبضان بالآلافات ينتظران لسماع مداخلته باهتمام وتزلف كأنها هي التي ستجيب التايهة وتثري الحوار وتضيف إضافة عميقة لدرجة قد تودي بالحوار للغرق فيها.

ربما كنت مزودها حبتين، أو ثلاثة. لكن ما حيلتي وقد حاولت أن أكبح جماح نفسي فما استطعت. أنت لست غريبًا لكي أقول لك أن هذا الموقف الحنبلي حرمني قبل سنوات من فرصة أن أكون مذيعًا يشار إليه بالبنان في زمن كان أغلب المذيعين يشار إليهم بغير البنان، كان صديقي المخرج يظن أنني سأنهال على قدميه تقبيلًا فور انتهائه من زف البشرى إلي، فوجئ بي أسأله بغتاتة: والبرنامج على كده هيبقى تسجيل ولا على الهواء، صمت هنيهة ثم افترض حسن النية وقرر أن يجيبني محضرًا قدميه للتقبيل «باقولك برنامج يومي على الهوا وهيكسر الدنيا»، آخر ما كان يتوقعه أن أقول «يفتح الله.. إنت عايزني أعمل لكو فضيحة»، أخذ يؤكد أنه يفترض وجود إحساس

عارم بالمسئولية لدي، طمأنته أنني لا أخاف من الشطط السياسي أو الزلل اللفظي بقدر ما أخاف أن أفقد السيطرة على نفسي من تكرار اسطوانة «وطي صوت التلفزيون» كل يوم فيأتي علي يوم ليس يومي أكبس فيه مشاهدًا كريمًا بالقول له «عايزنا نقتنع بالرأي اللي هتقوله إزاي وإنت مش قادر تقتنع بإنك توطي صوت التلفزيون.. بذمتك سمعتها كام مرة الجملة دي في حياتك البائسة»، فيرد وقد شعر بالحرج «إزاي تكلمني بالطريقة دي.. إنت مالك أوطي الصوت ولا أعليه.. إنت شغلتك مذيع تبتسم وتسمع رأيي وإنت ساكت.. بتاخد فلوسك عشان كده يا بارد»، فأرد وقد شعرت بحرج أكبر «أنا بارد يا تافه.. ياللي سايب حالك ومحتالك عشان تقول رأي عكس بعضه.. وتلاقيك مستخبي تحت اسم مستعار عشان ماحدش يعرف إن ده رأيك.. ولو ابنك كلم حبيبته دقيقتين تقلب الدنيا إنما إنت تستنى على الهواء بالربع ساعة عشان تقول كلمتين فارغين تحس بيهم إنك أبو السباع»، وكلام من هذا القبيل الذي يحوله الانفعال إلى غلط يأخذ العاطل بالباطل فأتلقى من الشتائم ما أستحق وتصبح سمعة برنامجكم كما الزفت فيهرب منه المعلنون إلى برامج منافسة لا يستنكف فيها المذيعون أن تنفلق وجوههم من الابتسام وهم يستمعون إلى صدى صوت مشاهد لطعوه على الخط دقائق «ممكن أشترك في البرنامج.. صدى صوت». فيردون «اتفضل حضرتك بس وطي صوت التلفزيون الأول» بينما تراودهم خيالات لذيذة يحلمون فيها بخنق مشاهد كهذا بسماعة التليفون التي يتصل منها دون أن يوطي ويقفل.

لا يا صديقي أنا آسف لست ذلك المذيع.

أدب الكافيهات!

الله يلعن أبو الفلوس التي جعلت أمثالنا يقعد على الكافيهات. ما لها القهاوي، ألم تكن لمّانا وفاهمانا وستر وغطا علينا؟

يا قوم، إذا كان ثمة ما سيعيدني ثانية إلى القهاوي لا أبرحها حتى أموت، فسيكون أدب الكافيهات المزيف الخنيق الذي لا أدري من هو صاحب الشورة المهببة التي أقنعت أصحاب الكافيهات أن يفرضوه «غصب واقتدار» على العاملين لديهم، يقترب الشاب الطُّلعة منك وفمك ممتلئ حتى الثمالة بحتة السندوتش أو قطعة البيتزا ويدك الأخرى ممسكة بطرف الشاليموه تَعُبُّ عبًا مما كبر حجمه وتفرنج اسمه وغلا ثمنه من المشروبات، فيقتحم خلوتك ويفسد فرحتك الطبقية، وينحني عليك حتى تكاد تظنه سيخطف السندوتش ويجري، ويقول لك بأدب لزج «أخبار الأوردر إيه يافندم»، لا تستطيع طبعًا أن تقول له «طب اديني فرصة أعرف أخباره»، أو «لازم يبقى كويس عشان يستاهل سعره اللي ممكن يأكل أسرة جامعية»، أو في أسوأ الأحوال تنثر رذاذ السندوتش في فمه وتقول له «الأوردر لله وحده»، فتعرض نفسك لنظرة تظهر التهذيب وتبطن عداءً شرسًا يريد

أن يصرخ فيك بعزم ما فيه «حقك يا كلب تستظرف.. الله يلعن أبو الزمن اللي حوجنا لخدمة حقير زيك.. مش لو كان عندي واسطة زيك كان زماني اشتغلت في حتة عدلة وكان زمانك مكاني».

لا تقل لي إن ذاك التزلف من أصول الخدمة اللازمة لجعل الزبون أكثر راحة، فالسادي المعقد هو وحده الذي يريحه ذل الآخرين وتزلفهم. على حد مشاهداتي المحدودة في كافيهات العالم المتقدم، الجرسون يتعامل معك دائمًا باحتراف شديد يجعله صالبًا طوله أمامك، حذرًا في أن يعبر الخط الوهمي بين إرضاء الزبون والتزلف له، حتى عندما يسألك عما إذا كانت لديك ملاحظات محسوبة على «أوردرك»، فهو لا يسألك ليطلب رضاك عنه، بل لكي يلبي ما تطلبه فعلًا ويعتذر لك إذا ثبت أن خطأً حصل في حقك، لن تلمح في عينيه أبدًا أنه أقل منك ولو بدرجة مئوية، بالعكس رأسه برأسك، فقد قبض ثمن خدمته فعلًا مما ستدفعه، فإن انبسطت ومنحته بقشيشا فالأمر يرجع لك، وإن لم تمنحه لن تتبدل فجأة نظرة الود الزائف إلى شرارة عداء مقيت، هو واقعي مع نفسه، يعمل في هذه الشغلانة إما لأنه يحبها ويراها وسيلة هائلة للكسب، أو لأنه يعتبرها محطة ضرورية حتى ينشر روايته الأولى أو يحصل على دور لقطة في فيلم أو ينتهي من رسالة الدكتوراه، وفي كل الأحوال لن تلمح في عينيه سوى الانشغال بأداء دوره، ولن تضبطه متلبسًا بالحرص على أن تتواصل أعينكما لكي تلتقط تزلفه وتمنحه رضاك وبقشيشك وتخصم من إنسانيته.

صدقني عندما أقول لك أن تناكة القهوجي أحب إليّ من تزلف الجرسون، وأن قهوجيا يرزع صينية المشاريب على ترابيزتك وهو واثق الخطوة يمشي ملكًا أجدع عندي من شاب يجبرونه على أن

يمتهن نفسه لأنه يعلم أن لقمة عيشه تعتمد على درجة تلذذ الزبون بتعذيب الآخرين، أرجوك لا تتهمني بالاضطراب النفسي الآن، يعني حتى لو كنت مضطربًا نفسيًا لا يصح أن تقولها في خلقتي، على الأقل قبل أن تتحدث عن الاضطراب النفسي انتظر حتى أحدثك عن صلاح.

في سنين الجامعة كانت قهوة ما في التوفيقية ملتقى أحلامنا وإحباطاتنا، كان يعمل بها أرزل قهوجي في بر مصر، كان اسمه صلاح مع أنه كان يبرشم يومًا ويحشش يومًا ويجمع في اليوم الثالث بين البرشام والحشيش، كان يتعامل مع الزبائن باستعلاء شديد، كأنه يصرف عليهم وليسوا هم الذين يفتحون بيته، أحسبه أول من اخترع نظرية «السكر بره» فقط ليرتاح من تذكر رغبات الزبائن في ما يخص «معالق السكر»، يومًا سمع صلاح صديقا لنا يقول بتأفف «حد ينادي الجرسون يا جدعان» فأصدر صلاح له صوتًا منغمًا ثم أردف «إيه جرسون دي شايفني لابس بنطلون محزق.. اسمي القهوجي يا حلو.. تشرب إيه.. ياريت ماتطلبش حاجة بحليب.. عشان ماعندناش تلاجة نحط فيها اللبن.. ومش طالبه يجي لك تسمم وتلبسها لنا.. أنا هاطلب لك شاي.. لو كملته هنبقى نشوف تشرب إيه تاني»، صديقنا أخذ ينظر له بذهول ظنناه يسبق العاصفة ثم اتضح أنه يسبق استلابًا جعله من يومها لم يجلس على قهوة أخرى، ولم نفهم ما أصابه إلا عندما سألنا طبيبًا نفسيًا قال إن حالة صديقنا مشهورة في الكتب، وهي تحدث للرهائن الذين يتعلقون بخاطفيهم، وللشعوب التي تدعو الله أن يطيل في عمر حكامها خوفا من المجهول.

لم تقل لي بعد، تشرب إيه؟

إثرَ حادثِ بطيخ!

يا سبحان الله، معقولة؟ أنا الذي ما في جسدي إلا موضع لسندوتش كبدة كلاب أو أثر لسجق مشبوه النسب أو طعنة من سيخ لحم تغير طعمه ولونه أو رشفة من تمر هندي آسن، أرقد على فراشي كما يرقد البعير إثر أكلة بطيخ. فلا نامت أعين الفكهانية.

الساعة بالوقت تجري، والواجب يناديني لكي أوفي بموعدي اليومي معك يا قارئي، وبطني التي خذلتني خذلانًا مبينًا بعد سنين من الجدعنة تناديني «إتلهي، إنت فيك نفس»، لو لا بناتي زغب الحواصل لالتهمت شريط المطهر المعوي عن بكرة أبيه لكي أرتاح من عنائي، أكواب شاي بالنعناع تروح وتغدو مثلما أروح وأغدو إلى بيت الراحة الذي لم يعد له من اسمه نصيب. كم هي تعيسة البلاد التي يشرف الإنسان فيها على الموت لأنه قرر أن يلتقي بمن يحب.. بالبطيخ.

يا حسرة على البطيخ. البطيخ الذي كنا نسفحه بالفانلات الداخلية دافسين أفواهنا بين قطري شرائحه، قبل أن نصبح قدوة لعيالنا فيتحتم علينا أكله بالشوكة مقطعًا ومرصوصًا في الصينية وفاقدًا للهوية. هانحن عشنا حتى صار البطيخ عدوًّا. البطيخة التي كان الفكهاني

يتحايل عليك أن يشقها، وأنت من لهفتك على أكلها تقول له «خليها على الله واوزن»، راغبًا في أن تكون أنت أول الشاقّين لها، ومقاومًا زغللة عينيك التي تراودها خيالات طلوع البطيخة من الفريزر ساقعة تَسُر السافحين، أصبحت الآن تنظر إليها كأنها فخ، تقلبها ذات اليمين وذات الشمال، لم تعد الآن تخبط عليها برقة المحب المكتشف، بل بترزيع الخائف الوَجِل، يَشُقُّها لك الفكهاني من محيطها إلى خليجها حتى تكاد تُخرج أحشاءها، فلا يطمئن قلبك بل تدفس عينيك بداخلها، تبحث عن شبهة تحسم قرارك بعدم أخذها لكثرة ما تسمعه مع كل طلعة صيف من نصائح وفضائح تخص البطيخ، اللون أحمر دموي، الرائحة محايدة، الحجم لا شيء فيه، القشرة خضراء جنزاري، هل نأخذها وأمرنا لله؟ لا، هناك شيء مريب في الأمر لا بد من تبينه.

تسأل متوجسا:

ـ ماله البذر ده كتير؟

يرد الفكهاني بغتاتة الدنيا:

ـ لسه ما اخترعوش بطيخ من غير بذر يا بيه.

ـ إنت هتهزر.. ده بذر وطلع له بطيخ.

ـ جاي تقولي الكلام ده بعد ما شقيتها.

ـ طب هات أدوق كده.

ـ طب ما أديك عليها ضمان سنة.. إيه اللي جرى لك يا أستاذ.. ما تتوكل على الله.. هو أنا هاغشك.

ـ وما تغشنيش ليه.. إنت ناسي الخوخ اللي قلت لي سكري طلع ملحي.. والمشمش اللي طلع الزاتون أطعم منه.. والتفاح الصيني اللي طلع قلبه مضروب.. والموز اللي قلت لي بلدي طلع وطني.. والفراولة اللي كلها حديد بدليل إن لونها إسود متعاص بشوية لون أحمر.. والكمثرى اللي كسرت ضرسي وأنا باقطمها.. والجوافة اللي الخلاط كان هيرجّع وهو بيعصرها.

ـ خلاص ياعم أنا غلطان.. عوضي على الله.. بلاش منها.

ـ إنت هتبقشش عليا.. هات.. وديني ما أنا عاتقك لو طلعت محقونة ولا مضروبة.

أخذت وقَطّعت وفي الصينية رَصَصت وفي الفريزر حططت لزمن محسوب بالثانية لكي لا تتجلد قطع البطيخ فتتبلد، وبنية سيئة قررت أن آكل دون أن أنتظر عودة أهلي الذين كان الله بهم رحيمًا وبحسن نواياهم عليمًا، يا الله، ما أجمل هذا التنافر اللوني العبثي، كأننا واقعون في لوحة من لوحات فاروق حسني، أنا وصينية بطيخ حمراء حافلة بالسواد، وطبق جبنة براميلي ينضح ببياض الفورمالين، ورغيفان ناشفان ذهبيان مشوبان بسمرة خفيفة في بعض المناطق، هل أبكي من اللذة قبل الأكل أم بعده؟ الجوع لم يدع لي وقتًا للبكاء، لكنني بكيت بعدها كثيرًا وأنا أعض خشب السرير «هاتوا لي الفكهاني الواطي.. عايز أتف عليه قبل ما أموت»، زوجتي تذكرني بالله لكي لا يكون آخر حظي من الدنيا التف على فكهاني أو شتيمة الذين خلفوه، لم تعمني شهوة الانتقام لأن مرارة الوجع كانت قد تكفلت بذلك. ابن البواب الحرك النبيه الذي ذهبوا به لإحضار الفكهاني لعلي أرتاح

عاد يضرب كفًا بكف وهو يزف إلينا بشرى أن الفكهاني أسعفوه إلى المستشفى منذ ساعتين، أهتف «الله أكبر.. عدالة السماء»، فتذكرني زوجتي أن الفكهاني بريء لا محالة فقد أكل من نفس البطيخة التي أسقطتني، فيرد عليها ابن البواب «لا يا حاجة.. قالوا لي إنه كان واكل كانتالوب».

عيد الخامس من يونيو المجيد!

احتفلت مصر والوطن العربي كله أول أمس بعيد الخامس من يونيو المجيد الذي سحقت فيه جيوشنا العربية المتحدة عام ١٩٦٧ المشروع الصهيوني الاستيطاني وأعلنت قيام دولة فلسطين التي يعيش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون جنبًا إلى جنب متساوين في الحقوق والواجبات.

في هذا اليوم المجيد وبعد مرور أربعين عامًا يمكننا أن نحكي لأبنائنا الذين لم يشهدوه بمزيد من الغبطة والفخر عن كفاحنا الذي قادنا إلى هذا النصر المجيد. نحكي لهم عن الرئيس جمال عبد الناصر الذي لم يستجب لأصوات المنافقين وخدم السلطان رافضا أن ينصب نفسه حاكمًا مدى الحياة بعد خروج مصر سالمة من عدوان السويس عام ١٩٥٦، ومقررًا خوض انتخابات رئاسية حامية الوطيس تفوق فيها بأغلبية معقولة على منافسيه اللدودين المستشار مأمون الهضيبي وفؤاد باشا سراج الدين الذي دخل ممثلًا عن حزب الوفد بعد أن اعتذر الزعيم مصطفى النحاس عن خوض الانتخابات معتبرًا أنه صار يمثل الماضي أكثر من الحاضر. نحكي

عن الجيش المصري العظيم الذي عاد إلى الثكنات طواعية ليلعب دوره في حماية الوطن وسلامة أراضيه، عن أضخم انتخابات برلمانية شهدتها مصر تحدث العالم بانبهار عن خلوها من التزوير والقمع والعسف الإداري، وكيف انتهت بمفاجأة ثقيلة العيار هي خسارة حزب الوفد واكتساح حزب الإصلاح الذي تم تشكيله بعد إعلان جماعة الإخوان المسلمين التوقف عن النشاط السياسي وتحولها طواعية إلى جمعية خيرية اجتماعية دينية، ثم نحكي لهم كيف عاد الوفد إلى الصدارة في الانتخابات التالية بعد أن فشل حزب الإصلاح في تحقيق البرنامج الانتخابي الذي وعد به.

نحكي عن اللجنة القومية لمناهضة التعذيب والتي شكلها عبد الناصر برئاسة شهدي عطية الشافعي وعضوية فتحي رضوان ومكرم عبيد وعبد القادر عودة وإحسان عبد القدوس. عن البرنامج النووي المصري الذي بدأته مصر في صمت بتمويل من الدول العربية ودعم من الاتحاد السوفيتي ثم فاجأت العالم باكتماله، عن رفض ناصر لتأميم الصحافة المصرية أو اغتيال حريتها وإقالته لإدارة إذاعة صوت العرب لعدم إعجابه بسياسة التهويل والتضخيم التي تتبعها، نحكي عن رفضه تورط مصر في أي حروب خارجية إلا بعد بناء مصر أولًا، عن وقوفه شامخًا فوق المزايدات والمؤامرات ليعلن أن الوطن العربي لن يكون قويًا وحرًا ومستقلًا إلا عندما تحقق مصر استقلالها الاقتصادي ونهضتها العلمية والثقافية، وأن خلاصنا النهائي كعرب لن يكون إلا بالعلم والحرية معا، نحكي عن الخطة القومية الشاملة لإنشاء نظام تعليمي متطور ودعم البحث العلمي وضمان استقلال الجامعات والذي أنجزته لجنة من كبار العقول المصرية

رأسها طه حسين. عن رفض عبد الناصر أن يستجيب لأصوات الذين حضوه وحرضوه على إجراء تعديلات دستورية لزيادة مدة بقائه في الحكم إلى ثلاث مدد بعد أن قاربت الثانية على الانتهاء.

نحكي عن سلسلة المناظرات الفكرية التي عقدت بين كبار المثقفين والمفكر سيد قطب حول فكرة الحاكمية التي تبناها في كتبه الأخيرة وانتهت بتراجع قطب عن كثير من أفكاره، عن اعتذار صلاح جاهين عن الاستمرار في كتابة أغاني احتفالات الثورة معلنا تفرغه لكتابة عمل شعري ضخم عنوانه على اسم مصر، عن عبد الناصر الذي أعلن من القدس في ٢٣ يوليو ٦٧ أنه يعتبر النصر الذي تحقق في ٥ يونيو خير ختام لفترته الرئاسية الثانية ويعلن عن فتح باب الترشح لثاني انتخابات رئاسية حرة في مصر، ثم نحكي أخيرًا عن الجماهير التي لم تخرج لتقول له لا تتنحى واكتفت بإرسال برقيات شكر تعده بأنه سيكون دائمًا في القلوب.

تتوقف الحكايات كلها بغتة وأصحو من الأحلام فزعًا على صوت قبيح ينبعث من ميكروفون مزعج يجوب الشوارع «الحزب الوطني في مصلحتك.. بلدنا بتتقدم بينا.. نعم من أجل الاستقرار والاستمرار»، ومن التلفزيون انبعث صوت مذيع قناة الجزيرة مولولًا «كيف يرى العرب هزيمة يونيو بعد أربعين عامًا»، يوسوس لي الشيطان أن في صوته نبرة شماتة، فأستعيذ بالله من الشيطان وأحاول العودة إلى النوم لعلي ألحق بأحلامي قبل أن تتبدد، يطير النوم كلية على وقع أصوات تنبعث من المنور لطفلتين من بنات الجيران تغنيان أو ربما تهتفان «عسكر فوق وعسكر تحت.. اخص عليك يا بتاع الكحك».

شيء نجس في الملعب

قال المذيع الشهير وهو يتميز غيظًا بعد هزيمة منتخبنا القومي النكراء في كأس القارات بأقدام منتخب أبناء العم سام «اللي حصل للعيبة بتوعنا يأكد إن في شيء نجس في الملعب.. دي ناس استهترت بسمعة مصر.. بدل ما الواحد فيهم يقرب من ربنا ويدعي له ويصلي له ويقول يارب إكرمني يقوم يجيب ستات». وبعد هنيهة دخل اللاعب الشهير على هواء المذيع الشهير وهو يتصبب سخطًا «إزاي تقولوا كلام زي ده على أشرف جيل لعيبة في تاريخ مصر.. كلنا بنصلي الفرض بفرضه وبنقرا القرآن مع بعض وبنعرف ربنا كويس أوي وقريبين منه، فيها إيه يعني لو اتغلبنا في ماتش».

ومن ساعتها والناس في بلادي منقسمون، بعضهم يرى أن «شيئًا نجسًا» في جنوب أفريقيا جعل «كباتننا» يلعبون كأنهم سكارى وما هم بسكارى في مباراة كانت لوزة مقشرة وشيكة السقوط في أفواهنا، والبعض الآخر يرى ما حدث ابتلاء لكي لا نفرح بما أتانا ويوقن أن لاعبينا البررة لا يمكن أبدًا أن يفكروا في أنصاصهم التحتانية وأن الدنيا لو عرضت عليهم في صورة امرأة لعوب لقالوا لها حتمًا: غُرِّي

غيري. وبين صراع الشهوة والفضيلة يتجلى مظهر جديد لخيبتنا بالويبة في كرة القدم وغير كرة القدم، وعشقنا لعدم الوصول إلى حل لأننا نهرب دائمًا من وضع أيدينا على المشكلة.

مع احترامي لجميع الكباتن في ملعب الوطن، لو كانت نجاسة اللاعب وشهواته سببا لخسارته، ولو كان تقواه وورعه سبيلًا إلى فوزه، لفاز فريق طالبان بكل كئوس العالم، ولحصدت المحاكم الشرعية الصومالية ميداليات كل دورات الألعاب الأوليمبية، ولباء بالخسارة والفضيحة كل لاعبي العالم من الفسقة الذين يعاقرون الخمور ويسافدون الكاسيات العاريات ويمشون على حلِّ فانلاتهم.

مع احترامي يا كابتن، ليس عيبًا أن تضعف كإنسان أمام شهواتك، وليس من حقي أن أتدخل في حياتك الشخصية، فالوحيد الذي من حقه أن يحاسبك عليها هو ربك الذي خلقك، أو سلطات العدالة إذا تجاوزت ووقعت في قبضتها، العيب أن تكون غبيًّا فتهدر فرصتك في نيل المجد، العيب أن تخذل أملي فيك، العيب أن لا تلعب بشرف ورجولة. آه، بمناسبة الرجولة، ارمح طول الليل على سراير المتعة إن أردت، أنت حر، لكن المهم أن تكون بعدها قادرا على الرمح لساعة ونصف في المستطيل الأخضر لتدخل السعادة على قلوب من يحبونك، يا سيدي لو أنك جعلت من عملك متعتك لاستمتعت وأمتعتنا معك. اقض الليل ساجدًا إن أردت، سيتقبل الله منك، لكن ما نريده منك أن تسجد لله شكرًا داخل الملعب بعد ما تحرزه من أهداف، فلو أنك جعلت من عملك عبادتك لكسبت ثوابك وكسبت فينا ثوابًا.

يا أبا الكباتن، مشكلتك كلاعب ليست في أنك سهرت الليل متهجدا أو سهرته عابثًا، مشكلتك أنك تسهر الليل أساسًا، مشكلتك هي نفس مشكلة أبناء وطنك.. أنك لست محترفًا ولست كفؤًا ولست على قدر المسئولية، مشكلتك أنك كأي شيء في بلادك لديك مشكلة في «الفينيش»، في التقفيل، في الخيال، في اللمسة الأخيرة، في العاطفة الهوجاء التي لا تعرف المنطق، في الهيصة التي يقطمها النزول الحتمي على مافيش.

يا كابتن، مشكلتك أنك مثلنا جميعًا قابل للتصدع السريع والانهيار الفوري، مشكلتك أن كل شيء في حياتك بالصدفة، مشكلتك أنك تلعب وأنت تحلم بحتة الأرض التي سيخلصها لك أحدهم بعد أن تأخذ مكافأة البطولة، مشكلتك أنك لا ترى مرمى الخصم بقدر ما ترى أمامك إعلانات الشاي والحاجة الساقعة والموبايلات وأمواس الحلاقة ومستقبل العيال، بينما من يلعب أمامك لا يرى أمامه سوى مرماك ولذلك يأتيه كل ما تحلم به مباشرة بعد فوزه عليك، مشكلتك أنك تنشغل بمستقبلك أكثر من حاضرك فتضيع الاثنين معا، بينما خصمك يعرف أن مستقبله تضمنه اللحظة التي يعيشها الآن، ولذلك فهو يعطيها حقها بكل إخلاص واحتراف وحب واستمتاع، مشكلتك أنك تحسم معاركك قبل أن تخوضها فتخسرها كالعادة، وخصمك عندما يقع في هذا الخطأ ويتعامل معك بفوقية ويرى أنك بدأت تتفوق عليه، يلم نفسه فورا ويتعلم من أخطائه ويقيل عثرته ويتقدم ويعود ليكسبك من جديد، فلا تهنأ يا حلو بما ظننته مكسبًا سيدوم.

يا كل الكباتن في هذا الوطن المبتلى بغياب العقل، صدقوني،

ليس مهمًا داخل أي ملعب في ملاعب الحياة أن تكون تقيًا أو فاجرًا، المهم أن تكون كفوًا. هذا وإلا فسنظل موعودين إلى الأبد بالفرحة المقطومة.

هارد لك، هارد كانتري.

لعبة الاستيقاف

ألم يحدث لك مرة أن مشيت بسيارتك أو على قدميك في الشارع بعد مباراة للأهلي أو الزمالك أو حتى للمنتخب القومي، وكان لديك هم ألهاك عن فرحة انتصار كروي تحققت للتو، وساقك حظك العثر لتمر بجمهرة من المشجعين الذين سيلتفون حولك إن كنت راجلًا أو حول سيارتك لو كنت راكبًا، ألم يدقق هؤلاء في ملامحك ولفت انتباههم كلضمتك أو عدم مشاركتك الوجدانية لهم بالتزمير أو الابتسام، ألم تجد نفسك مجبرًا بعد تحلقك حولهم على أن تزمر بزمارة سيارتك أو ترسم ابتسامة عريضة على وجهك وتهتف «بيب بيب أهلي.. بيب بيب زمالك.. بيب بيب مصر»، ماذا وإلا ستظفر في أسعد الأحوال بشتيمة قبيحة، إن لم ينلك طرف من العقاب الجسدي أو تطلع بصاج عربيتك متحطمًا بفعل الأيدي الغاضبة التي تعاليت عليها ورفضت أن تشاركها فرحتها العارمة.

سعيد هو من نجا من لعنة الاستيقاف الكروي في مصر ولزم بيته بعد المباريات التي تسودها العداوة والبغضاء قبل سنوات طويلة وبصحبة اثنين من أجمل فناني مصر صلاح السعدني أطال الله بقاءه

ومصطفى متولي رحمه الله، عشت تجربة الاستيقاف المريرة على أيدي جماهير الزمالك في شارع جامعة الدول العربية، لا تدري ما الذي ألهانا عن تذكر انتصار الزمالك في مباراة مهمة على الإسماعيلي، شاهدنا المباراة سويًا ونزلنا لمقابلة الفنان محمود الجندي وصحبته، فجأة وفور اقترابنا من سور نادي الزمالك وجدنا أنفسنا وسط معمعة بشرية تسير ملوحة بأعلام الزمالك ممسكة بما تيسر من علب البيروسول والبمب والصواريخ، كلما همت سيارة بالمرور أوقفها الجمع الحاشد فإن كان صاحبها حصيفًا بادر إلى التزمير والهتاف للزمالك فنال حق المرور سليمًا معافى، وإن تباطأ للحظات تولى الجمع تنبيهه بالتخبيط على سيارته، كنا لا نزال نحاول فهم ما حدث عندما صاح شاب كان يلعب دور زرقاء اليمامة للجمع المحتشد «صلاح السعدني أهوه ياله»، وفجأة وجدنا أنفسنا تحت ما يربو على خمسمائة مواطن، السيارة ترتج كعصارة جزر عتيقة، والزجاج به كولاج عبثي من أجساد بشرية منعجنة، عين إلى جوارها فخذ تلتصق بها فردة جزمة تلتحم بها أذن تبدو طالعة من مؤخرة تستند إلى قفص صدري، الكل يهتف ذاكرًا أمهاتنا بأطيب الذكر، مر شريط العمر أمام عيني فكتمت بصعوبة ضحكة ساخرة من عبثية النهاية، عقل مصطفى متولي الراجح هو الذي أنقذنا يومها، «زمّر يا صلاح زمّر بسرعة»، ما إن بدأ عم صلاح في إطلاق التزمير المنغم حتى علا صوت مصطفى متولي رحمه الله وأنا من خلفه فورًا بالهتاف «بيب بيب زمالك»، فجأة تزحزحت الجموع المتلاصقة قليلًا لنرى أعينًا تنظر إلينا باسترابة ونحن نصفق ونهتف جميعًا هذه المرة، ارتباك ما ساد الجميع فهم يعلمون من هو صلاح السعدني ومصطفى متولي، وكم هما ضليعان في الانتماء الأهلاوي، ذهل الجمع أمام لحظة ظفر

جاءت على غير توقع، ما إن ارتخت حماستهم قليلًا حتى بدا أن هناك ثمة ثغرة فتحت وسط الجموع المتلازمة ليمرق منها عم صلاح كالسهم، بينما الجموع الغاضبة تجري خلفنا وقد أدركت الخديعة التي وقعت فيها، ظل الذهول يكسو ملامحنا للحظات، ليلتها كلما حكينا لأحد ما حدث سب ولعن إن كان أهلاويًا، وإن كان زملكاويًا ارتدى ثياب الحكمة وقال لنا أن جمهور الأهلي يفعل أوحش من ذلك مع أي شخصية عامة تعرف بزملكاويتها، والجميع أيًا كانت ملتهم الكروية اتفقوا على ألا ينزل إلى الشارع بعد أي مباراة فاصلة أيًا كانت إلا من كان قادرًا على تحمل مخاطر الاستيقاف.

طيب الاستيقاف الكروي ديته معروفة. لكن ماذا عن الاستيقاف الديني الذي يمكن أن تجد نفسك خارجًا عن ملة الإسلام وزمرة المسلمين لو تباطأت في التعامل معه وترددت في الهتاف في وجه كل من يتحاور معك «بيب بيب والله العظيم أنا مسلم»، ماذا عن الاستيقاف الوطني الذي يمكن أن تجد نفسك فيه خائنًا عميلًا كارهًا لبني وطنك لمجرد أنك لم تزمر «بيب بيب أنا وطني وباحب مصر»، وخذ عندك «بيب بيب أنا باحب عبد الناصر.. بيب بيب أنا باكره أمريكا.. بيب بيب أنا ضد العولمة.. بيب بيب أنا ضد التمويل الأجنبي.. بيب بيب أنا مش علماني»، ولماذا وإلى متى وأنت تسير في شارع الوطن ستجد من يستوقفك ويرفض أن يعطيك أذنه طالما لم تزمر وتعلن موقفًا يريحه من ناحيتك ويجعله لا ينظر إليك بعين الشك ولا يمد لك أصابع الاتهام ويصدر حكمه بحقك، هل تعبر بسلام أم تدفع الثمن؟ مع أنه لا أحد يدفع ثمن هذا الاستيقاف سوى مصر

بالمناسبة بيب بيب أهلي.

مداخل إلى التغيير

سألني وهطل الأطفال في عينيه: في رأيك متى يمكن أن تشهد مصر انتخابات محترمة خالية من التزوير والعنف وشراء الذمم وقلة القيمة؟ فأجبته وفي عينيّ زهق الكبار من الأسئلة الهطلاء: معاك ورقة وقلم؟ ثم أمليته عنوان برج فاخر يقع على نيل المعادي، وقلت: هناك في مدخل تلك العمارة ستجد لافتة معلقة أمام باب الأسانسير عليها إجابتي، وهو ظن أنني أصنع به مقلبًا، وأصر أن نذهب سويًا ليعرف مني مباشرة وحصريًا إجابة سؤاله البريء.

إلى العمارة دلفنا، وعلى السيكيوريتي سلمنا، وأمام باب الأسانسير وقفنا، وقبل أن يحضرنا أحد من السكان أخذت أقرأ لصديقي اللافتة المثبتة في مكان يستحيل ألا تقع عينا أي راكب للأسانسير عليه، «السادة الملاك: إن اتحاد الملاك وعددهم خمسة أفراد يبذلون منذ سنوات كل الجهد ويستهلكون من وقتهم وأعصابهم تطوعًا للارتقاء بالبرج والمفروض أن أقل مشاركة مطلوبة من باقي السكان هي القيام فقط بسداد المستحقات والمديونيات المتأخرة عن السنوات السابقة دون مطالبة وتكرار مطالبة. وشكرًا. مجلس إدارة الاتحاد»، سألني

دون أن يفارق الهطل عينيه: وما علاقة هذه اللافتة بالديمقراطية يا فكيك؟ قلت له: علاقتها أن ثمن الشقة في هذا البرج تصل إلى المليون جنيه في أسوأ التقديرات ومع ذلك يتهرب أغلب ساكنيه من دفع ١٠٠ جنيه بس شهريًا لصيانة عمارتهم وضمان أمنها ونظافتها، حكيت لصديقي كيف بدأت علاقتي بهذا البرج منذ ٣ سنوات عندما استأجر صديق لي مكتبًا به، ومن يومها كلما ذهبت إليه أجد لافتة تتحايل على السكان أن يتقوا الله ويدفعوا ما عليهم، حتى أنني كونت علاقة حميمة مع اللافتات جعلتني أصورها كلما تغيرت.

على كوفي شوب مجاور أخذت أري صديقي نماذج لتلك اللافتات، أحدها يناشد السكان سرعة دفع مستحقات شركة النظافة لأن الزبالة تتكدس بشكل لا يليق بسمعة سكان البرج، وأخرى تكاد تتوسل من أجل دفع المبالغ المطلوبة لإكمال مشروع تأمين المبنى ضد الحريق لأن سلالم إطفاء الدفاع المدني لا تصل إلا إلى الدور العاشر في برج به أكثر من ثلاثين دورًا، وثالثة بها استقالة غاضبة من رئيس اتحاد الملاك يصف السكان بأنهم لا يتحلون بأي مسئولية، تلتها لافتة بها اعتذار لما بدر من عبارات غير لائقة منه سببها الإحباط الذي أصابه بعد تطاول بعض الملاك عليه.

لاحظت انخفاض نسبة الهطل في عيني صديقي وقد بدأ يفهم ما أرمي إليه، فعاجلته برجاء أن يدخل إلى أغلب العمارات في أحياء مصر الراقية التي كنا نراهن على أنها ستنشر الذوق والشياكة والتحضر في أرجاء مصر، وأتحداه إذا لم يجد في مدخلها لافتة تناشد السكان دفع ما عليهم أو الالتزام بقواعد النظافة أو حضور اجتماعات اتحاد الملاك للارتقاء بالعمارة، ولأنني أعلم ثقل فهمه اصطحبته إلى عمارة

فاخرة بالزمالك يسكن فيها أديب كبير عدّد لي ذات مرة أكثر من ٢٠ شخصًا من علية القوم يسكنون عمارته، ومع ذلك اضطر اتحاد الملاك إلى كتابة لافتة بأسماء المتأخرين في دفع ما عليهم كوسيلة فعالة لإحراجهم، لكنني رأيت نفس اللافتة بعد ستة أشهر دون أن يتغير فيها شيء سوى حجب بعض الأسماء بقلم أسود عصبي.

بعدها اصطحبت صديقي إلى عمارة تقع خلف برج أم كلثوم في أرقى مناطق الزمالك، لأقرئه إلى جوار مصاعدها الفاخرة لافتة ضخمة تناشد السكان عدم رمي الزبالة في المناور، وعدم التباطؤ في دفع فلوس صيانة المصاعد ومستحقات شركة النضافة وعدم تنضيف السجاجيد في البلكونات، بالإضافة إلى سطور تشبع السكان لومًا وتقريعًا لتأخرهم في دفع المبلغ المتفق عليه لإصلاح شبكة الصرف الصحي وتغيير المواسير التي أصبحت في حالة «يرسى لها» طبقًا للإعلان.

صرخ صديقي في وجهي في مدخل العمارة وهو يحتمي بالصراخ من اليأس الذي داهمه: يعني إيه يا أخي، عايزنا نبقى ملايكة علشان نشوف الديمقراطية في بلدنا، قلت له: أبدًا، ليس عندي مانع أن نظل شياطين كما نحن، لكن حتى الشياطين يدركون أن كلًا منهم إذا لم يبدأ بعمارته ستنهار البلاد كلها على «دماغاتهم». رجاني أن نخرج إلى الهواء الطلق فأجهزت عليه قائلًا: على فكرة اللي بيكلمك ده عمره ما حضر اجتماع اتحاد ملاك في عمارته.

خلّي عندك حساسية!

لم أكن أعرف أن هناك أناسًا كثيرين في حياتي لديهم حساسية من الفراولة. اكتشاف ذلك بالصدفة البحتة المتتالية هيّج بداخلي أمنية قديمة بأن أعيش يومًا ما تلك المتعة التي أراها في عيني من يقدمون له كوبًا من عصير الفراولة فيمد يده مزيحًا الكوب ويقول بإباء وشمم «مش ها اقدر أصل عندي حساسية من الفراولة».

جئت إلى هذه الدنيا دون أن يكون لدي حساسية من أي شيء، ولم تصبني الحساسية أبدًا رغم أني أكلت على عربيات كبدة وسجق لو أكل عليها كلب ضال لاهتدى، وشربت عند بتوع عصير شرب عليهم الدهر ثم قضى حاجته، ودائمًا كنت أعتبر الحساسية أمرًا لا يليق إلا بالأغنياء، لكن صديقي حمدي عبد الرحيم هو الذي أثبت أن الفقر يمكن أن يجتمع مع الحساسية، وأن الحساسية زي الفقر مش عيب، مرة من المرات المُرة التي مرت علينا منذ عشر سنين، تمردت معدته على ما ألقيناه لها من أكل ملوث، تطوعت بإعطائه برشامًا ليأخذه قبل إيابه إلى بيته بصحراء ستة أكتوبر، وتطوع أخونا أكرم القصاص بالتصديق على نجاعة الدواء، فصدقناه لصلته الوثيقة

بالعلم النابعة من كونه يومها كان يكتب عناوين الصفحة العلمية في الدستور، في اليوم التالي أمطرتنا اللعنات عبر الهاتف من حمدي الذي كان يجهل حساسيته لمادة السلفات التي كان الدواء مليئًا بها، وأولاد الحلال رفاقه في الميكروباص الذين أسعفوه إلى مستشفى ستة أكتوبر لم يتركوه إلا بعد سؤاله عما إذا كان يريد تقديم بلاغ ضد بلال وأكرم اللذين ظل يشتمهما طيلة وقت مغالبته لطعنات الألم.

بعدها بأربع سنين ولا تتعجب إنها إرادة الله عرفت مواطنًا مصريًا مصابًا بحساسية من الفول والطعمية، هو صديقي شريف عامر المذيع اللامع، كنا نعمل ساعتها في مكتب إم بي سي بالقاهرة، جمعونا في مكتب واحد ربما ليثبتوا قدرتهم على الجمع بين النبلاء والصيع، كان شريف يذهب إلى المكتب مبكرًا ليعمل بإخلاص بينما كنت أذهب إلى المكتب متأخرًا لأسأله «هناكل إيه النهارده؟»، كان ينظر إليَّ للحظات ربما ليتذكر من أنا أساسًا وما الذي جمعه بي ثم يضحك. يومها كنت قد أقمت وليمة عامرة من التابعي الدمياطي تضم ما لذ وطاب من الفول الغارق في زيت الزيتون والطعمية المعجونة سمسمًا والنازة زيتًا فضلًا عن كميات لا بأس بها من البتنجان بكافة موديلاته والبطاطس الصوابع والبطاطس المهروسة أو «البوريت» كما كان يسميها ساعي المكتب، كان لا بد أن ننتهي من الأكل سريعًا قبل أن يحل علينا وفد شركة إعلانية كبرى قادم من لندن، ظل شريف ينظر إلى الأكل المفروش فوق مكتبي بارتياب ظننته كِبر أولاد ذوات، شخطت فيه بعشم «جرى إيه يا شريف.. ده إنت ابن الكاتب الكبير منير عامر.. يعني ابن بلد مأصل.. هي الريادة الإعلامية غيرتك»، فكان لا بد له أن يشتمني شتيمة قبيحة على غير عادته لإثبات أصوله

الشعبية القحة، وهو ما زاد عشمي لأحلف بالله وتالله العظيم تلاتة وحياة بونا بيتيه الذي لا يأكل شريف إلا من سندوتشاته أن يأخذ مني طعمياية قبل أن أرميها في فمه قسرًا، ولكي يشتري روحه من رزالتي كشف لي سره الذي كان يخفيه اتقاء لساني قائلًا بصوت متلعثم «مش هينفع أصل أنا عندي حساسية للفول والطعمية.. لو كلت فول أتنقل المستشفى على طول». وربما لأنه ابن حلال عقدت الدهشة لساني بدلًا من أن تطلقه بالتريقة، قلت له لو كنت متوضئا لسجدت لله شكرًا لأنه لم يكتب لي أن أعيش بعذابك وإلا لكنت مت جوعًا أو من أكل الكشري باعتباره كان الاختيار الآخر في مينيو الحياة لسنوات طويلة.

كل هذا تذكرته بالأمس وأنا أتقلب في عيادة الطبيب كبرص مقطوع الذيل بعد أن كادت أكلة كشري بالكبدة من أحب عربيات الكشري إلى قلبي تودي بحياتي وتوقف نبض قلبي، عندما قال لي الدكتور أن آخذ بالي لأن معدتي حساسة، انتفضت قائلًا له إنني زي الفل وإن معدتي لا تعرف الإحساس، وإنني آكل الزلط غير مغسول لو أراد، لكنني مع تصاعد نوبة مغص جديدة هويت كورقة توت أو بالأصح كشجرة توت، وعندما رآني الدكتور ساهمًا حاول مواساتي وسألني «ما لك.. سرحت في إيه؟»، كدت أقول له إنني هاموت وأضرب مجددًا علبة كشري بالكبدة لكنني خفت أن أموت فعلًا، فقلت له مفيش، باحمد ربنا على السلامة والحساسية التي أراد لي ألا أموت من غير أن أصاب بها تمامًا ككل من لديهم حساسية من الفراولة.

عزيزي سارق الكاسيت.. من أنت؟

عزيزي سارق الكاسيت.. من أنت؟ عبارة وجدتني أرددها لنفسي بعد أن تكرم لص جريء لا يخشى في الشر لومة لائم في وضح النهار أبو عينين وفي شارع عام مزدحم تحت سماء مصر المحروسة وأرضها المهروسة، وقام بكسر زجاج عربيتي وسرق كاسيتها اللا فاخر منعمًا عليَّ بترك الشرايط إما لأنه لا يحب مثلي محمد منير وشيرين وزياد رحباني ووردة، أو لأنه لا يسمع إلا السيديهات لأن صوتها يفرق كتير، أو ربما (وإياك أن تستبعد ما سأقوله) لأنه يؤمن بأن «الغُنا حرام».

«في داهية الكاسيت، فداك، كويس إنها جت فيه والعربية ما تسرقتش، قضا أهون من قضا، إنت هتوجع دماغنا عشان كاسيت لا راح ولا جه»، أستميحكم عذرًا أعزائي، لست محتاجًا لأي تعليقات كهذه لأنني فعلًا لست ذلك الرجل الذي يزعل على كاسيت ليس فيه «سي دي بلير»، كما أنني لمعلوماتكم ذات الرجل الذي لم يفكر للحظة في فلوس إصلاح آثار السرقة، ليس لأنها لا تفرق معي، بل لأن ما «كعته» سلفًا من فلوس التأمين الإجباري على العربية

سيتكفل بشراء كاسيت جديد، وربما لذلك لم أفكر للحظة في أن أصرخ مستنكرًا كيف تقع جريمة مثل هذه في وضح النهار، فالجرائم تقع في العالم كله في وضح النهار، ومصر بخير والأمن مستتب والذي سرق الكاسيت هو بالتأكيد مختل عقليًا، ولست تافهًا لأشغل جهاز الأمن بجريمة هايفة مثل هذه، لذلك اكتفيت بتحرير محضر لزوم إثبات الحالة لدى شركة التأمين، دون أن يخطر لي على بال أنه سيتم يومًا ما العثور على اللص الأثيم الذي سرق الكاسيت، لأشاهده يبكي في برنامج «خلف الأسوار» معتذرًا عن الآلام النفسية الرهيبة التي سببها لي ولأسرتي، ويطلب مني الصفح والمغفرة، كما أنني لن أسأل أبدًا أين كان أشقائي المواطنين سكان ومارة الشارع الذي وقعت فيه السرقة وقت وقوعها، ولا لماذا لم يلفت انتباههم كسر الزجاج أو صوت إنذار العربية، فأنا أعلم أنهم إما بين عائش في نشوة فوزنا على إيطاليا وهزيمتنا بفارق تاريخي من البرازيل، أو مرتعد هلعًا من إنفلونزا الخنازير، أو كفران من بلده وحبايبه والمجتمع والناس، فكيف أطلب إذن منهم أن ينتبهوا لما تتم سرقته من سيارات أو حتى بيوت حولهم، وأنا أعلم أن كل حي فيه ما يكفيه، وكل قناة مدايقة باللي فيها، وأنني لا يصح إلا أن ألوم نفسي وأعتبر أن الغلطة غلطتي لأنني بسلامتي فايق ورايق وماشي بكاسيت في العربية، بينما الناس ماشية تكلم نفسها في الشارع.

طيب إذا كنت لن أتحدث عن كل هذا، فما لزمة هذا اللتّ بالضبط. لازمته يا سيدي أنني منذ سرقة الكاسيت مشغول بسؤال وحيد هو «يا ترى الكاسيت هيجيب كام لما يتباع»، وهو سؤال ليس هايفًا كما قد يبدو لك لأول وهلة، لأنه يقود إلى مجموعة أسئلة ستدرك

عند قراءتها اليوم وغدًا أنها أسئلة شديدة الخطورة، لكن دعنا قبل طرحها نقدر أولًا ثمنًا للكاسيت عند بيعه في سوق الإمام الشافعي، أو لسيدة ما ورثت دور المرحومة نعيمة الصغير في فيلم المشبوه، أو لأي تاجر خرب الذمة سيشتري بثمن بخس كاسيتًا يعلم من أول نظرة لبائعه أنه سارقه، دعنا نقل إن كاسيتًا يباع في ظل هذه الظروف المريبة يوم أن يضربه الدم سيباع بمائتين قول ثلاثمائة جنيه. مش كده؟ طيب، مبلغ كهذا عرض صاحبه نفسه لخطر ارتكاب جريمة في وضح النهار ماذا يمكن أن يفعل به، وعلى ماذا ومن سيصرفه، أولًا سنفترض أن من يفعل ذلك لا بد أن يكون مدمنًا لكي يرتكب فعلًا جنونيًا كهذا، وبالتالي فإنه بسرقته هذه أمّن لنفسه دماغ أسبوع كامل إذا كانت دماغه «ديرتي»، أو دماغ ليلتين على الأكثر إذا كانت دماغه متكلفة، وفي كلتا الحالتين فهو مدمن حقير لا يستحق الشفقة، لأنه أعرض عن الصراط المستقيم واختار أن يكون شمامًا أو حشاشًا أو بانجويًا أو سرنجاتيًا والعياذ بالله، وكان بإمكانه أن يكون رجل أعمال ناجحًا أو طبيبًا بارعًا أو مهندسًا مرموقًا أو صنايعيًا كسيبًا، لكنه أدار ظهره لهذه الملايين من فرص العمل التي توفرها الحكومة المباركة بقيادة رئيسنا المحبوب المنتخب والتي فتحت له أحضانها ممنية إياه بالمستقبل الرغيد فأعرض ونأى بجانبه وقرر أن يلجأ إلى سكة الضياع بمحض إرادته. طيب ولماذا لا يكون مدمنًا بل يكون لصًا محترفًا مات قلبه وتحجرت مشاعره، واتخذ من سرقة الناس سبيلًا لإشباع رغباته المريضة المنحرفة الآثمة، رافضًا البتة أن يمشي في طرق الخير والحق والعدل التي يعلم هو، كما تعلم سيادتك، أن مستقبلها لا يتخير أبدًا عن مستقبل السائرين في طرق الصعيد.

طيب.. ما دمنا نعيش في بلد تحدث فيه طبقًا لإحصائية رسمية جريمتان ونصف كل يوم بسبب الفقر دون غيره من دوافع الجريمة، فلماذا لا نفترض أن ذلك المجرم المجهول الذي سرق الكاسيت بتاع أنا، ليس مدمنًا سبرتجيًّا بورشامجيًّا سرقه لينفقه على ملذاته الدنيئة، بل سرقه ليدفع ثمن قسط غسالة قد يسجن لو لم يدفعه، أو ليدفع أجر جلسة غسيل الكلى لأمه المريضة، أو لابنه المحتاج إلى عملية سريعة، أو ليدفع رشوة للحصول على وظيفة حكومية، أو ليحوش ثمن تأشيرة للهجرة إلى إيطاليا، أو ليدفع فلوس الضرائب التي تراكمت عليه بعد فشل مشروع شباب الخريجين الذي قام به، أو ليتمكن من الوفاء بمتطلبات الفتاة التي يتمنى أن يخش بيها دنيا تمامًا كما فعل ذلك الشاب الذي فشل في توفير ٨٠ جنيهًا قسط الجمعية التي دخلها ليعجل الدخول بخطيبته، فقام باستدراج خالته إلى الزراعية وبعد أن قتلها لم يجد معها إلا سبعة جنيهات ونصف فقط لا غير. ستقاطعني صارخًا «إيه ده يا سيد بلال، هل أنت عبيط لكي تبحث عن أعذار لمن سرقك، بدل ما تقول يا رب يتشل ويولع بجاز زي ما مد إيده على عربيتك وزي ما هيمد إيده على عربية غيرك».

قد تراني كذلك، وقد أكون كذلك خاصة وأنني لن أغرم كثيرًا جراء هذه السرقة، فرفاهية التفكير فيمن سرقني لم تصبني إلا لأن سرقته لم تكن موجعة لي بشدة، قد تظن ذلك، وهذا حقك، وقد تكرهني لأنني أقلب عليك المواجع ولا أضحكك كما تعودت أو كما تحبني أن أفعل، لكنني أقسم لك بالله العظيم إنني ومنذ أن وقع لي ما وقع وأنا أفكر في ذلك المجرم الصغير البائس طيلة الليل

والنهار، صحيح أنني أسأل الله أن ينجيني من أن أكون مرة أخرى ضحية له أو لغيره، لكنني في نفس الوقت أسأل نفسي كثيرًا وأتمنى أن تشاركني أسئلتي الحائرة المريرة، هل يمكن أن يسرق كاسيت عربيتي أو عربيتك شخص توفرت له فرص الحياة المعقولة ولا أقول الرغدة، شخص يشعر بأن هناك أملًا من أي نوع سواء كان أملًا عريضًا أو صالحًا للاستخدام مرة واحدة وأن هناك جدوى للاستقامة، وأن هناك قانونًا يقع على رقبة الكل، الكبير قبل الصغير، هل يعرف أن هناك عبّارة غرقت ومات فيها ألف شخص في غمضة عين، هل أثر فيه ذلك الموت الجماعي ولو للحظة وجعله يفكر في أن الموت قريب منه تمامًا كما هو بعيد عن المسئولين المخلدين في مصر وخيرات مصر، هل ذهب إلى اسكندرية يومًا ورأى البحر رأي العيان وتنسم هواءه الذي يشفي العيّان وبنى قصورًا على الرملة، هل يعرف الفوائد الغذائية الموجودة في ثمار البحر والحبوب الكاملة ومنتجات فول الصويا والألبان خالية الدسم، هل يعرف أن هناك معركة بين أنصار التوريث وأعدائه، هل تكحلت عيناه قبل ذلك برؤية السيد جمال مبارك وهو يضرب على الطاولة بيده مؤكدًا أن الألف مصنع التي وعد والده ببنائها هي مبنية لا محالة ولا مندوحة ولا غضاضة، هل دخل يومًا ما إلى سينما من أم خمسة وعشرين جنيه للتذكرة ورأى فيلمًا هادفًا بناء على ترشيح ناقد لا يحب لذوقه أن يفسد، هل قرأ كتابًا من كتب أنيس منصور المائتين، هل حضر درسًا من دروس الشيخ الشعراوي، هل وقف ذات صباح ليهتف «تحيا جمهورية مصر العربية» أمام حائط كتب عليه «مدرستي جميلة نظيفة متطورة» إلى جوار صورة للرئيس مبارك مبتسمًا فخورًا بإنجازاته التاريخية،

كم كيلو لحمة بتلو أو كندوز أو حتى جملي أكله في حياته البائسة، هل أكل يومًا ما سندوتش كومبو أو شرب يومًا زجاجة مياه معدنية، وهل خرج يومًا ما في فسحة من أي نوع إلى أي مكان آدمي، هل تمكنت ثورة ٢٣ يوليو أن تحقق له هدفًا واحدًا من أهدافها، وما الذي ناله من كل إنجازاتها التي نالها غيره من ملاك كاسيتات العربيات، ختامًا هل المشكلة حقًا في سرقة الكاسيت أو العربية ذات نفسها، أم أننا نستطيع ببساطة ونحن نبحث عن إجابات على كل الأسئلة التي طرحتها أن نصل إلى حقيقة مفزعة تلخصها عبارة واحدة «يا ريت تيجي على الكاسيت وبس».

وقانا الله وإياكم ومن تحبون شر غوائل ثورة المعدمين وغضبة المحبطين وانفجار المضغوطين.

الشرطة في خدمة السنّة!

لله الحمد والمنة. ها نحن من حيث لا ندري ولا نحتسب نعيش في ظلال حكومة أهل السنة والجماعة.

هكذا ينبغي أن تقول لنفسك وأنت تتابع مؤخرًا قضية تنظيم نشر المذهب الشيعي في مصر، والتي ذكرتنا بأمجاد وزارة الداخلية في حماية السنة الشريفة، عندما أحبطت ويالللمصادفة قبل سنتين وفي شهر يوليو أيضًا ما أسمته وقتها بتنظيم «القرآنيون»، لا أدري هل تنشط غدة حماية السنة لدى الحكومة في شهر يوليو بالتحديد، لكنني أدري أن أعضاء تنظيم نشر المذهب الشيعي يمثلون الآن أمام النيابة العامة التي لا يمكن لأحد أيًا كان أن يشكك في كفاءتها أو يتدخل في عملها فهي تعرف القانون وتقوم على حمايته، وإذا كان من واجبها أن تكفل ما نص عليه الدستور للمواطنين من حق حرية الاعتقاد، فحاشا لنا أن نتدخل في واجباتها، لكننا فقط نريد أن نعرف إذا كانت حكومتنا المباركة غيورة على السنة النبوية إلى هذا الحد، فلماذا لا تقرر أن تحبب الناس فيها بأن تطبقها أولًا ثم تتفرغ بعدها لملاحقة المتشيعين ومنكري السنة.

بالطبع ينبغي أن يكون الإنسان فخورًا لأن في بلاده وزارة للداخلية وحماية السنة بلغ من غيرتها الدينية أنها ألقت القبض على زمرة من الناس يتبادلون مع بعضهم البعض أفكارًا لا أمل في انتشارها في مجتمع ليس لدى المواطن فيه استعداد لأن يسعى لتغيير رئيس المجلس المحلي الذي يتبعه، فضلًا عن أن يسعى لتغيير مذهبه. لكن ذلك الإنسان الفخور بحماية السنة سيكون أشد فخرًا لو رأى وزارة الداخلية تحرص على الفروض والواجبات الشرعية ربع حرصها على المذاهب السنية، فلا يتعرض مواطن للتعذيب على يد أحد منتسبيها ولا توضع في مؤخرته عصا أيًا كان قُطرها ولا يتم إدخال الكهرباء إلى جسده المعتم، ولا يضربه ضابط على وجهه كأنه دابة، أو يشير إليه بإصبعه إشارة بذيئة وهو يضحك مع زملائه، ولا يقمع عساكرها مواطنًا يسير في مظاهرة هاتفًا بما يرضي الله ويغضب الحزب الوطني.

جميل أن يكون لدى وزارة الداخلية كل هذا الحرص على سنة نبينا عليه الصلاة والسلام لكن الأجمل أن يتم ترجمة هذا الحرص إلى أفعال ملموسة، كأن تصدر الداخلية تعميمًا لضباطها وأمنائها وعساكرها بأن يطبقوا نص الحديث النبوي «تبسمك في وجه أخيك صدقة»، بدلًا من أن يتصور أغلبهم أن هيبة الضابط تأتي من تكشيره وشخطه في الناس ومعاملتهم بدونية لأنهم خلقوا من طين لازب بينما خلق الضابط من طين برشومي. قل لي بالله عليك ما الذي سيحدث لو قرأ مواطن حسن النية طاهر الطوية وقائع منافحة الداخلية عن السنة النبوية المطهرة فسكنه السرور وملأه الحبور وقابل أول ضابط في الشارع فقرر أن يلتزم بتعاليم السنة ويدخل السرور على قلب أخيه الضابط بأن يهش في وجهه ويربت على كتفه ويقول له

«كيف حالك يا أخي الباشا»، لو حدث ذلك لدعونا له إما بالرحمة أو الشفاء.

لن يرتاح ضميري لو لم أقل إنني أعرف بين ضباط الداخلية من يطبقون روح الإسلام أكثر من بعض منتسبي الجماعات الإسلامية بل ومن بعض قادتها، هؤلاء كما أعرفهم ولا أزكي على الله أحدًا يتعاملون مع الناس، كل الناس، معاملة كريمة فلا يأخذون أحدًا بالشبهات ولا يعطلون قضاء حوائج الناس ولا يسارعون في أذى أحد باللسان أو اليد خصوصًا لو كان ضعيفًا وفوق كل هذا لا يفوتون فرضًا أو سنة قبلية كانت أو بعدية، لكن يظل السؤال هل هؤلاء حالات فردية أم أنهم القاعدة وسط أجهزة الأمن؟ يكفي أن تزور قسم شرطة في حي شعبي، أو تكون واحدًا من الشعب وتزور قسم شرطة في حي راقٍ، وعندها ستدرك إجابة هذا السؤال.

بلاش يا سيدي اختبر مشاعرك إذا وجدت نفسك مضطرًا لدخول قسم شرطة في جميع الأحياء لقضاء مصلحة أو تحرير محضر، أسمعك الآن تقولها لي يا راجل تف من بقك الشر بره وبعيد، إذن كيف يستقيم وجود هذا الشعور بالتف لديك، مع حملة الدفاع عن السنة ومحاربة التشيع التي تتبناها وزارة الداخلية والتي لو كانت قد استعاضت عنها بمحاولة تطبيق مبادئ السنة المطهرة أولًا لتحولت أقسام الشرطة إلى مراكز لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الفقه والحديث، ولشهدنا اليوم الذي يوقف الرجل سيارته جوار القسم ليقول لأهل بيته «ثواني بس ألحق العصر في القسم وآجي لكم» فلا تلطم زوجته لأن زوجها دخل القسم بل تقول له ووجهها يطفح بالبشر «والله لولا إن عندي عذرًا لدخلته معك.. يا ريت تقول للمأمور ما ينساناش من دعائه».

عودي يا روسيدا آكي

بصراحة، لم أكن أعلم أن المهندس أحمد عز الرجل القوي في الحزب الوطني العاكم للبلاد مهتم بثقافة وتجارب وتطور دول شرق آسيا، إلا عندما قرأت خبرًا عن هروب خادمته الإندونيسية واختفائها في ظروف غامضة.

نص الخبر يقول إن محاميًا موكلًا عن خادم الشعب المهندس أحمد عز «قام بتحرير محضر أثبت فيه حالة هروب خادمة عز «إيدا روسيدا آكي» إندونيسية الجنسية ٣١ سنة، ولم يتهمها بالسرقة أو الاستيلاء على أي من منقولات مسكنه الكائن بفندق الفور سيزون، وطلب بإثبات حالة تغيبها، تم إخطار مباحث أمن الدولة بالواقعة، وجاري العرض على النيابة لتولي التحقيق». الخبر الذي نشرته صحف عديدة يثير عددًا من الأسئلة، أرجو أن تكون على قدر المسئولية فلا تجعل على رأسها سؤالًا عن السبب الذي يجعل أحمد عز يترك شقته الواسعة الفسيحة (بالتأكيد) ويزنق نفسه بالإقامة في فندق، خاصة وربنا موسعها عليه، لن أجيب عليك لأنني لا أريد أن أداعب غدة الحقد الطبقي الكامنة بداخلك، سأكتفي بأن أدعو الله

لنا ولك بأن يزنقها علينا كما زنقها على المهندس أحمد عز ويضطرنا بكرمه إلى شقق الفور سيزون الفندقية قادر يا كريم.

لا أريدك أيضًا أن تسألني مثلًا عن سر إخطار مباحث أمن الدولة بالواقعة دونًا عن كل «المباحثات التانية» خاصة أن الخادمة الإندونيسية لم تسرق ما خف وزنه وغلا ثمنه كما يقول الخبر الذي لم نعرف منه هل امتنعت إيدا روسيدا آكي عن السرقة أمانة منها وتعففًا، أم لأن المهندس أحمد عز ليس لديه إلا ما ثقل وزنه وغلا ثمنه، أرجوك لا تقل لي إذن ما هي علاقة أمن الدولة باختفاء هذه الخادمة الأمينة التي باتت عملة صعبة في هذا الزمن «الصعيب»، هل نسيت أننا الآن محكومون بأفكار المهندس عز ورفاقه في «أمانة عليك يا ليل السياسات طول»، ألا يمكن أن تكون تلك الخادمة جاسوسة لإحدى مخابرات الدول الكبرى التي يشغلها سر تقدمنا الرهيب، ولذلك قررت زرع إيدا روسيدا لكي تكون «إيدها» في قلب شقة أحمد عز فتسرق وثيقة بها سر خلطة الفكر الجديد أو مقادير الوصفة التي جعلت البلد تتقدم بينا، أو كشفًا بالمنافع التي حصل عليها أحمد عز من وراء الحديد الذي خلقه الله تعالى فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأحمد عز من خيرة الناس كما نعلم جميعًا، حتى لو لم نكن نعلم سر بأسه الشديد وبؤسنا الشديد.

ادعُ معي إذن لمباحث أمن الدولة أن توفق في مهمتها الخطيرة وتعثر على الإندونيسية الهاربة قبل أن تقع في أيدي الأعداء ويتزعزع استقرار بلادنا الحبيبة، ثم دعني أرجوك، بل وأتوسل إليك، أن تقدر خطورة المرحلة وحساسية الظرف الراهن، فلا تطرح على الإطلاق سؤالًا رقيعًا من نوعية «طيب يا أستاذ يا بتاع الفكر الجديد يا منفذ

برنامج سيادة الريس بتاع الخمسة مليون فرصة عمل.. جايب إندونيسية ليه تخدمك.. ألا هي الشغالة المصرية كخة يا باشمهندس؟»، برضه لم تستجب لتوسلاتي وسألت السؤال؟ كنت أتوقع أن تتمهل وتتدبر ولا تحرف الكلم عن مواضعه، فتدرك أن ما فعله المهندس أحمد عز إن أنبأ عن شيء، فهو ينبئ عن وطنيته المصرية الجارفة التي جعلته يرفض أن يجعل مصرية كريمة العنصرين تعمل خادمة لديه، ولذلك قرر بوصفه خادمًا للشعب أن يستقدم خادمة من وراء البحار لتحصل على مئات الدولارات (متهيأ لي كده)، بل ودفعته عاطفته الدينية الجياشة لأن يختارها من دولة إسلامية عريقة وليس من الفلبين أو الحبشة أو سريلانكا، فقط لكي لا يهدر كرامة مواطنة مصرية قد يضطرها الأمر أن تميل على بلاط الفور سيزون لكي «تُسَيِّقه» في حالة اختفاء بتوع «الهاوس كيبينج» في ظروف غامضة.

لماذا اختفت إيدا روسيدا آكي؟ لماذا تركت عز أحمد عز؟ هل نقحت عليها كرامتها فجأة فهتفت «كفاية.. إحنا خلاص وصلنا للنهاية»؟ هل كانت سعيدة وهي تعمل لدى أحمد عز مثل بعض الكتاب والإعلاميين والساسة الذين لا يختفون أبدًا؟ هل لعب أحد في دماغها فطفشت بعد أن ذكرها بأيام قمة باندونج عندما كان لا يحكم مصر وإندونيسيا إلا الكبار؟ أسئلة كلها لا نملك لها إجابات، فهي الآن بين أيدي رجال أمننا البواسل. كل ما نملكه أن نصرخ من أعماق قلوبنا: يا إيدا روسيدا آكي عودي.. أحمد عز في انتظارك.

هل يقبل الله صيام الحكام العرب؟

أموت وأعرف.. لا بلاش أموت لأن الموضوع مش مستاهل، يكفي أن أعرف على إيه وبأي أمارة يتبادل الملوك والرؤساء العرب كل هذا القدر من مكالمات وبرقيات التهاني بمناسبة حلول شهر رمضان المعظم، وهل هم حقًّا فرحون إلى هذا الحد بقدوم شهر الصيام كما يفرح به أطفال باب الشعرية وحلب ومراكش وصلالة ونجران وجزر الملايو وأم درمان الذين سيسمح لهم آباؤهم أن يشاركوا الأسرة في صومها هذا العام؟

سؤال يقودني إلى سؤال آخر لا أمَلُّ من إعادته كل رمضان ـ لعل الإفادة تتحقق يومًا في إحدى مرات الإعادة ـ هل يتقبل الله صيام الحكام العرب؟ لاحظ أنني في مناسبة كهذه اخترت سؤالًا صعبًا وشائكًا كهذا مع أنه كان يمكن أن أسأل أسئلة بلهاء مثل هل يجلس الحكام العرب مثلما نجلس عقب ليلة الرؤية لكي يرسلوا لبعضهم الماسجات الرمضانية التي يتفنن في صنعها خبراء شركات المحمول؟ أو أسأل عما إذا كانوا يقومون بتجهيز حاجات رمضان مثلنا في آخر لحظة، أم أنهم يخططون لذلك بشكل علمي فيبدءون

في تجهيزها قبل ليلة النصف من شعبان؟ فأنا أعلم أن ما نفرح به نحن من متلازمات رمضان (ولا أقول لوازم رمضان) كالمكسرات والحلويات والياميش والقطائف والولائم العامرة مبذولة لهم طيلة العام، والمبذول كما تعلم مملول، لذلك فكل هذا الهوس الرمضاني بالأكل والشرب والذي يجتاحنا نحن كشعوب ليس مطروحًا لدى حكامنا، فهم بالتأكيد أكثر فرحًا بالجانب الروحي للصيام، نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدًا منهم فكلهم ما يعلم بيهم إلا ربنا، هم بالتأكيد يحبون شهر رمضان لأنه يتيح لهم أن يجربوا ولو لساعات الجوع الذي يجربه الشعب طيلة العام، لكي يقولوا ساعة انطلاق مدفع الإفطار «بقى هو ده الجوع اللي بتشتكي منه الشعوب؟! طب ما هو صحي ولذيذ أهوه، طب والله ما أنا مشبعكو يا كلاب».

قد يستبق مستبق الإجابة على سؤالي هذا فيوجه لي سؤالًا آخر: ولماذا تفترض منذ البداية أن الحكام العرب يصومون أساسًا؟ وجوابي للأخ السائل: اعلم يا هداك الله أنني لا يمكن أن أدخل أبدًا ما بين العبد وربه فأفترض أنه ملتزم بطاعته أو تارك لها، فنحن كعبيد لله ليس لنا إلا ظاهر ما نراه، ولذلك علينا أن نفترض أن تبادل التهاني بين الحكام العرب هو فرح بقدوم شهر الطاعة الذي يصومون فيه عملًا بقول الله تعالى «فمَن شَهِد منكم الشهرَ فليصمه ومَن كان مريضًا أو على سفر فَعِدَّةٌ من أيام أُخَر»، وبما أن أغلب الحكام العرب لا يحبون أن يكونوا على سفر ضمانًا لعدم حدوث انقلابات عسكرية خلال سفرهم، وبما أن صحتهم كما لا يخفى عليك مثل البمب بحيث دفنوا أجيالًا وراء أجيال وهم باقون بعد على كراسيهم، لذلك فقد حق عليهم الالتزام بالأمر الإلهي، ولذلك لا أنا ولا أنت نستطيع

أن ندخل في ضمائرهم ونفترض أنهم لا يصومون رمضان، وأنهم يكتفون منه بالفرجة على السيت كوم والمسلسلات وأكل القطائف والمكسرات وترديد وحوي يا وحوي إيوحه.

ستقول لي طيب إذا كنت متطهرًا محترزًا عن رمي الناس بالظُنَّة إلى هذا الحد فلماذا تسأل سؤالًا أسخم لا يعلم إجابته إلا الله وحده كالذي سألته، هل يعقل أن تلومني لأنني أسأل عما إذا كان الحكام العرب يصومون من أصله، فإذا بك تسأل وهل يقبل الله صيامهم، كيف تسأل عن شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل. وإجابتي يا عزيزي السائل: اعلم يا هداك الله أن سؤالي ليس فيه والعياذ بالله اجتراء على الله عز وجل ولا منازعة له فيما اختص به نفسه، فحاشا لله أن أكون من الجاهلين، وما سؤالي إلا من باب أن تسأل نفسك أو شيخك أو أولي قرباك هل يتقبل الله صلاة الظالم أو المفسد في الأرض، ولو شاء الله عز وجل أن يجعل سؤالًا مثل هذا محرمًا لما قال لنا في كتابه الكريم «إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ من المُتقين»، وهي إجابة طُرِحت في بدء الخليقة منذ عهد ولديْ سيدنا آدم لسؤال كان رب العزة لا محالة يعلم أنه سيثور في ذهن كل أولاد آدم في كل العصور عن المعيار الذي يفرق بين من يلتزم بقشور الطاعات وبين من ينفذ إلى جوهرها ويلتزم به.

لذلك يا حياك الله من حقي ومن حقك أن نستغرب تلك الفرحة التي يقال لنا إن الحكام العرب يشعرون بها عند قدوم شهر رمضان إلى حد يدفعهم لتبادل التهاني والتبريكات، بينما لو فكروا قليلًا لأدركوا أنه من التناقض أن تفرح بقدوم شهر أنت على قطيعة كاملة مع كل ما يمثله، فإذا كان الحاكم العربي يحتفي بشهر رمضان المعظم

بوصفه الشهر الذي أنزل فيه القرآن الكريم فدعنا نسأل راغبين في الفهم ليس إلا، أين هو من القرآن الكريم، وهل طبق منه في بلاده شيئًا غير الآية التي تحض على طاعة أولي الأمر، ومنذ متى فتح كتاب الله بحق وحقيق، بدلًا من الاكتفاء بتقبيله عندما يأخذه هدية في افتتاح كوبري أو مصنع أو تسليم شهادة لحافظ قرآن ثم يعطيه لمساعديه لكي يعينوه مع من سبقه، وإذا كان الحاكم العربي لكي لا نرجمه بالغيب يقوم بفتح ما يهدى إليه من مصاحف ويقرأ فيها ما تيسر وهو ينتظر أذان المغرب أو أذان الفجر أو حتى وهو يقوم الليل إذا أحسنًا به الظن إلى أبعد مدى، فهل مر يومًا ما على آية «إن اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي» وهي آية لو تأملت لوجدت أن الحكام العرب لا يلتزمون منها إلا بإيتاء ذوي القربى.

طيب، إذا افترضنا أن الحاكم كأي مواطن يتوقف في شهر رمضان عما اعتاده من هجر للمصحف الشريف ويقوم بفتحه ولو للحظات قبل أذان الفجر أو أذان المغرب.. هل يمكن أن نفترض أنه قرأ في لحظة رمضانية قوله تعالى: «وَلا تُفسِدوا في الأرضِ بَعْد إصْلاحِها»، الإجابة: ربما فعل وظن أن الآية ليست موجهة له؛ لأن الواقع ينبئنا أن الحاكم العربي لا يُصلح في الأرض بل يكتفي بإفسادها فقط. سؤال آخر: هل وقعت عينا حاكم عربي ذات مرة على التحذير الإلهي المهيب «وإذا أرَدْنا أن نُهلِكَ قريةً أمَرنا مُترفيها فَفسقوا فِيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تَدْميرا». الإجابة: ربما قرأها وظن أنها لا تخصه لأنه لا يحكم قرية بل جمهورية أو مملكة، لا أريد أن أذكرك بأننا لسنا بحاجة إلى أن نعدد الآيات التي يمكن لقراءتها أن تغير من قارئها إلى

الأبد إذا كان يخشى ربه، وقبل أن تتهمني بالدخول في نوايا الناس دعني أذكرك بأن الله عز وجل هو القائل في محكم كتابه: «اللهُ نَزَّل أحسنَ الحديثِ كِتابًا مُتشابهًا مَثَاني تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذين يَخْشَون رَبَّهُم»، وإذا كانت جلود الحكام العرب من النوع الذي يخشى الله فقل لي لماذا لا تقشعر في أوطانهم أي جلود سوى جلود الذين يتعرضون للتعذيب في أقبية السجون والمعتقلات؟!

يا هداك الله إذا كان الحاكم العربي يحتفي بشهر رمضان لأنه شهر الرحمة فأين هي الرحمة في واقعنا المعذب؟ ولماذا لا يقرر من باب الرحمة أن يقتدي بشهر رمضان فينتهي ذات يوم أو تنتهي مدته ويهل علينا عيد لا نراه فيه؟ وإذا كان الحاكم العربي يحتفي بشهر رمضان لأنه الشهر الذي يحس فيه الأغنياء بآلام الفقراء كما قالوا له ذلك في المدرسة يومًا ما، فلماذا لا يحس بآلام الفقراء ولو في هذا الشهر فيتوقف عن نهب المال العام ويجبر معاونيه ومساعديه على إيقاف النهب والسرقة والتربح والبزنسة ولو شهرًا واحدًا في السنة لعل بلاده تأخذ نفسها قليلًا وتفوق لنفسها ولو حتى ثلاثين يومًا فقط لا غير؟ وإذا كان الحاكم العربي يحتفي بشهر رمضان لأنه الشهر الذي يتجمع فيه الناس سويًا على موائد الإفطار فيتزاورون ويتراحمون ويتوادون فلماذا لا يقرر أن ينزل إلى الشارع ولو ذات ليلة مفترجة بدون حراس ومواكب وسرينات وتشريفات وأمن دولة ودولة أمن ليترك للناس فرصة التعبير عن حبهم له وفدائهم له بالروح والدم؟ لماذا لا يستغل فرصة أن أحدًا لن يكون راغبًا في الفتك به في نهار رمضان لكي لا يخسر صيامه ولا الفتك به بعد الإفطار لأنه لن يكون قادرًا على الحركة من تخمة الإفطار؟ لماذا لا ينزل إلى

الناس فيسمع رأيهم الحقيقي فيه؟ رأيهم الذي لا يزوقه وزير إعلام ولا ينتحله رئيس تحرير صحيفة ولا يبتذله عضو حزب حاكم عاكم. بالمناسبة لماذا حتى الراقصات يقفن على موائد رحمن التي يقمنها للفقراء في رمضان ولا يقوم أي حاكم عربي على أي مائدة رحمن كما يقوم على موائد الشيطان التي يعقدها لحكام أمريكا وأوربا وإسرائيل؟ لماذا لا يرى فقراء الشعب حاكمهم يجلس بينهم ولو حتى بصحبة حراسته يفسخ لهم حتة من صدر الديك أو يغرف لهم شيئًا من الرز بالشعرية أو يدعوهم إلى قليل من الخشاف أو يذكرهم بأن طبق الخس مهدور حقه على السفرة؟

خلاصة الكلام يعني، إذا كان رمضان لم يغير شيئًا في الحكام العرب فلماذا يضحكون على ذقوننا ويقولون إنهم فرحون به مهللون لحضوره مهنئون لقدومه؟ وإذا كان الحاكم العربي يصوم رمضان فعلًا دون أن يدفعه لقراءة القرآن والعمل ولو بربع حزب منه، ودون أن تغمر الرحمة قلبه وتدفعه لصلة رحم شعبه والتخفيف من وعثاء حكمه وكآبة منظره وسوء منقلبه، فكيف يمكن أن يتقبل الله صيامه؟ لا تتهمني بالتدخل في شأن من شئون الله، وتذكر أن نبينا الكريم علمنا ألا صيام لمن لا صلاة له، هتقول لي إن الحكام العرب لو صاموا رمضان سيصلون فيه بالتأكيد، هنا دعني أقفلها لك وأذكرك بقول نبيك الكريم أن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، وهل هناك فحشاء ومنكر أكثر من نهب ثروات الشعوب وتقييد حرياتها وقمع أحرارها وتأجيرها مفروشة بأبخس الأثمان للخواجات والأجانب ودفع الناس إلى الخسة كأسلوب حياة والمذلة كمنهج تفكير والخوف كطريق للسلامة؟ لذلك ولذلك كله اعلم

يا هداك الله أنه لو كان حكامنا موجودين على ظهر البسيطة يوم أن فرض الله عز وجل تقييد إبليس اللعين في شهر رمضان لربما اشتكى قاتله الله إلى رب العزة كيف يقيده هو وذريته في رمضان بينما يترك الحكام العرب وأنجالهم وذريتهم أحرارًا مطلوقين علينا.

أسمج عصور الفوازير!

هل تذكر تلك الأيام الخوالي ـ خد بالك الخوالي باللام ـ التي كنا نقضي «العشر الأواخر» من شهر رمضان وما تيسر من شهر شوال في الفرجة على محاورات «مضيعات» التلفزيون مع «أعزائي كل أفراد الأسرة» حول تقييم فوازير رمضان، وهل كانت نيللي فاكهة رمضان السنة دي أم أن شريهان كانت أفكه منها في السنة الماضية؟ هل تذكر كيف كانت الفوازير موسم رزق ليس فقط لمن يعملون بها، بل أيضًا لمن يلعنونها من خطباء المساجد والمصلحين الاجتماعيين وحماة القيم بالإضافة إلى الصحفيين الذين ساهمت الفوازير في تكوين مستقبلهم من خلال مئات الآلاف من المواضيع التي «نحتوها» حول الفوازير معارضة وتأييدًا وتغطية وتقييمًا؟ هل تذكر كيف كان لا يمر هلال العيد دون أن نقرأ في شتى الصحف تنويعات على العنوان ـ السؤال «هل أصبح رمضان لا يصح بدون فوازير؟»، منشورًا أدناه كلام «إستامبة» يخرجه الصحفيون من أدراجهم ليضيفوا إليه بعض الرتوش تمامًا مثلما يفعلون مع موضوعات كعك العيد وارتفاع أسعار اللحوم وتوقعات مباراة الأهلي والزمالك وتلوث فسيخ شم النسيم وأزمة الثانوية العامة وزمن الفن الجميل.

راحت الأيام الخوالي وراحت معها الفوازير إلى غير رجعة، وفشلت كل محاولات بعثها من جديد مع أننا ويا للعجب نعيش بكل المقاييس أزهى عصور الفوازير، حياتنا كلها أصبحت فوازير خبيثة لا مكان فيها لبراءة «التفزير» عن اسم الدولة الفلانية أو المهنة العلانية، صحفنا ملأى بفوازير ترتدي أقنعة الأخبار، تشعر أحيانًا أن الخبر الذي تقرأه لا ينقصه سوى أن ينتهي برقم تليفون يجب أن يتصل به القارئ ليجيب على سؤال الخبر: لمصلحة من تم كتابة هذا الخبر؟ في قسم الصحافة بكلية الإعلام علمونا أن الخبر يتم طرحه للإجابة عن خمسة أسئلة: ماذا ومن وكيف ومتى وأين ولماذا؟ ويا ليتهم ما علمونا، فاليوم لا يحدث لدينا ماذا لأن ما لا يحدث أكثر مليون مرة مما يحدث، وسؤال من لم تعد لديه سوى إجابة واحدة مقترنة بشخص واحد كل الطرق تؤدي إليه وكلها تودي في داهية، وكيف سؤال لا يمتلك أحد حتى «الشخص» نفسه إجابة عليه لأن كل شيء يمشي بالبركة، ومتى سؤال إجابته مريرة هي عندما يشاء مزاج سيادته، وأين هو السؤال الوحيد الذي لدينا جميعًا إجابة منطقية له، لأننا نعلم أن ذلك كله لم يعد يحدث إلا في مصر.

في فوازيرنا الوطنية الآن لا مكان لنيللي وفساتينها المبهجة، ولا لشريهان وشعرها الذي يغيظ بنات مصر ولا لرقصها الذي يبهج شباب مصر، فالتصفيات النهائية الآن تجري بين ثعالب عجوزة (ما بَشِمْن برغم فناء العناقيد) وبين ضباع صغيرة متعطشة للمكاسب السهلة. في فوازيرنا الوطنية اليوم لا مكان لطرقعة صلاح جاهين أو ألاعيب سيد حجاب المبهجة أو حرفنة عبد السلام أمين فالنص كله ركيك منتهي الصلاحية لكنه مكتوب بخط كبير وتشكيل واضح

لكي تتمكن الأعين الضامرة من قراءته علينا كأنه جديد ومدهش، لا مكان لجنونات عمار الشريعي أو حتى لـ«نحت» حلمي بكر، فاللحن هو هو لم يتغير على مدى ٢٨ عامًا، والتوزيع دائمًا متروك لشطارة الموالسين كل حسب رؤيته اللحنية حتى لو كانوا جميعًا قد عموا وصمّوا ثم عموا وصمّوا عن كل شيء إلا ما يبهج قائد الأوركسترا الذي نجحوا في إقناعه أن المشكلة لم تكن فيه بل كانت في النوتة. لا مكان اليوم لخدع الحاج فهمي عبد الحميد فمجاراة الحداثة تقتضي أن نكسر الإيهام ويكون اللعب على عينك يا تاجر وإلا فلتنكسر رقبة من يعترض بعد أن يخبط دماغه في حائط العبور للمستقبل. في فوازيرنا الوطنية لا توجد جوائز للمواطن لأن المنتج استولى على كل الجوائز والبند لن يسمح بجوائز أخرى.

فوازيرنا المباركة باتت أكبر من قدرة العقل البشري على احتمال التفكير فيها: من أين أتى هؤلاء الباهتون عديمو الموهبة والخيال ليبهدلوا هذا البلد العظيم؟ وكيف سمحنا لهم ولمن سبقوهم أن يستنطعونا هكذا؟ وهل يفرق تغيير الوجوه التي تحمل المسئولية إذا كانت المسئولية ذاتها ملقاة داخل نعش؟ وهل تأتي يومًا ساعة الحساب العادل؟ ولماذا يتحدى الحاكم في بلادنا كل قوانين الطبيعة وحقائق الزمن وأسباب الكون؟ فوازير مصرية خالصة يبدو أننا سنموت دون أن نعرف لها إجابة مثلما مات قبلنا عمنا أبو الطيب المتنبي بحسرته دون أن يعرف إجابة لفزورته الشهيرة «أكلما اغتال عبد السوء سيده.. أو خانه فله في مصر تمهيد».

في ضرورة تغيير أبي الكباتن!

في كل بلاد الدنيا عندما تحدث في أي فرقة بشرية هزيمة أو نكبة أو نكسة أو وكسة ترتفع الأصوات مطالبة بضرورة تغيير الكابتن الذي تسبب في حدوث الهزيمة أو النكبة أو الوكسة أو النكسة ليس لأن كل هذه المصائب لا بد أن يكون لها كبش فداء، ولكن لأن سنة الحياة تقضي بأن على الكابتن أن يتحمل مسئولية أفعاله، فحمله لشارة الكابتن ليس مجرد منظرة أو لنيل سلطة ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما هو التزام منه لتحقيق الفوز المطلوب والتقدم المنشود. وعندما يتخلى الكابتن عن ممارسة دوره فيسود التفسخ صفوف فريقه حتى لا تعرف له رأسًا من رجلين، وتشعر أن كل فرد من أفراد الفريق يلعب ضد زميله ولمصلحة الفريق المنافس سواء كان ذلك عن قصد وتآمر أو عن غباء وجهالة، عندها يكون واجبًا أن يرحل الكابتن الفاشل ويأتي كابتن جديد يلم الشمل ويتحد الفريق حوله لتعويض خسائره والتمتع بحلاوة النصر بعد سنوات لم تذق الألسنة فيها إلا طعم الفشل ومرارة الهزيمة، ولم تشم الأنوف إلا روائح الجمود وعطن الركود.

قد يقول قائل إنني أعلي هنا من دور الكابتن في تحقيق النصر وأقلل من شأن المدير الفني ودوره في تغيير مسار الفرق البشرية، لكنني سأعذر القائل بجهله وأفترض فيه مباشرة أنه ليس ضليعًا بشئون الفرق البشرية ولا بطبائعها، فلو كان كذلك لعلم أن هناك فِرقًا بشرية كثيرة يتضاءل فيها دور المدير الفني أمام دور كابتن الفريق الذي يوحد صفوفه وينظم جهوده ويقوده إلى النصر، وكم من الفرق توفر لها مدراء فنيون ذوو خبرة وأهلية وكفاءة لكنها لم ترزق بكابتن يلم شملها ويبث فيها روح النصر فلحقت بها هزائم منكرة لم تجد فيها الخطط النظرية نفعًا ولم تستطع لها دفعًا. ولكي لا نغرق في جدل بيزنطي لا طائل من ورائه دعونا نقرر هنا أن دور المدير الفني الذي يخطط التكتيكات ويرسم السياسات دور لا غنى عنه أبدًا، لكنه يفقد أي أهمية له عندما لا يكون هناك قائد صالح يلتف الفريق من حوله من أجل تحقيق النصر.

ومع أننا نتحدث طيلة الليل والنهار عن ضرورة مواكبة العصر والاحتذاء بالدول المتقدمة في خططها للتطوير والإصلاح إلا أننا للأسف الشديد عندما تحدث لنا الهزائم والنكبات والنكسات والوكسات لا نفعل ما يحدث في كل بلاد الدنيا فنغير الكابتن أو حتى المدير الفني بل نطالب بتغيير الجمهور لأنه لم يفهم عظمة الكابتن ولم يقدره حق قدره. فالكابتن لدينا دائمًا على حق واحتفاظه بشارته أمر لا مجال للنظر فيه، ولو طالب أحد بذلك وقفنا كلنا نقول له يا أخي عيب احترم تاريخه احترم عطاءه احترم عمره الذي أهدره في الفرقة تذكر له إنجازاته، فإن قلت يا سادة كل هذا على عيني وعلى رأسي لكن الفرقة أحوالها متدهورة وتحتاج إلى كابتن

جديد لعله ينقذ ما يمكن إنقاذه، هب الجميع ساخطين صاخبين يتهمونك بنكران الجميل وقلة الذوق وسوء النية والرغبة في زعزعة استقرار الفرقة والعبث بوحدتها، فإن قلت لهم يا سادة وما نفع الاستقرار والهزائمُ تتوالى علينا من كل حدب وصوب، قالوا لك إن الانتصارات ليست أهم من استقرار تشكيل الفريق واحتفاظه بكابتنه واللاعبين المخضرمين فيه، ويا فرحتنا بنصر زائف نفرح به قليلًا ثم نشعر بالغربة لأننا فارقنا من نحبهم من الكباتن الذين أهدروا عمرهم من أجلنا، فإن وجدت نفسك محاصرًا أمام كل هذه الاتهامات وأردت أن تشير لهم إلى ما يحدث في كل بلاد الدنيا من تغيير للكباتن ليس فقط عندما تحدث الهزيمة بل وأحيانًا عقب فترة من استقرار حال الفريق رغبة في التجديد وضخ الدماء الشابة في عروق الفرقة لكي لا تشيخ ولا تجمد ولا تتصلب شرايينها وتتكلس مفاصلها، هبوا فيك قائلين لك يا أخي عيب نحن أناس لنا تقاليدنا وقيمنا وتراثنا، وليس منا من لم يوقر كبيرنا، فإن قلت لهم مكملًا ومحاججًا ولكن أيضًا ليس منا من لم يرحم صغيرنا وثلاثة أرباعنا صغار فارحموهم وارحمونا وحلّوا عن سمانا، قالوا لك ألسنا نرحم الصغار فنعفيهم من تحمل أي مسئولية أو لعب أي دور في الفرقة، هل هناك رحمة بالصغار أكثر من ذلك يا عديم النظر، ثم يا سيدي دعنا نختار لك بمعرفتنا وعلى ذوقنا من بين الصغار من يحمل شارة الكابتن، وإياك أن تظن أن بيننا من يستمتع باحتلال منصب الكابتن مدى الحياة.

تخطئ كثيرًا لو ظننت أن احتلال موقع الكابتن في بلادنا إلى الأبد أمر ممتع ومسلٍّ، أنت تظن ذلك لأنك لم تكتوِ بنار تحمل مسئولية

الكبتنة، ولو حدث لك ذلك لجأرت بالشكوى من تحملك لمسئوليته ولطلبت سرعة إعفائك منه وقررت أن تتنحى عن أي منصب كابتن وتعود ثانية إلى صفوف الجماهير تواصل التشجيع معها بكل قرف وسخط، فالسخط ليس عليه جمرك، وكونك واحدًا من الجماهير لا يكلفك أكثر من إطلاق الهتافات البذيئة وشتم أم هذا اللاعب وأبو ذلك الحكم، ومطالبة الصحافة بأن تأخذ بالها من أن الإسمه إيه أهوه، كل هذا فيما تستمتع بأكل الفشار وشرب المياه الغازية وأنت لا ترحم أحدًا من طلباتك وتعليقاتك التي لا تنتهي. أما كونك كابتنًا فهو يحتم عليك ألا تكون لك حياة خاصة خارج دورك الكابتني، أنت مثلًا لا تستطيع أن تذهب إلى السينما وقت ما تريد فتلتف حولك الجماهير تضايقك وتقرفك، ولنفس السبب ستجد نفسك لا تستطيع أن تأكل في المطاعم وتشرب في الكوفي شوبات وتمشي في جنبات المولات تطالع الڤاترينات وتعاكس البنات، فأي حياة هذه يا من تطمع في شارة الكابتن وتسعى إليها وتظنها أملًا ومكسبًا.

احمد الله إذن على كونك جمهورًا واشكر نعمه وبوس يدك شعرًا ودقنًا، وشيل من دماغك تمامًا حكاية تغيير الكابتن هذه أو حتى تغيير المدير الفني لكي لا يتم تغييرك أنت كجمهور، فآخر ما يمكن أن يُسمح لك به هو أن تطالب بتغيير الخطة، دون أن يضمن لك أحد تغييرها فورًا، فاتخاذ قرار بتغيير الخطة لا يصدره إلا من كانت يده في النار مثل الكابتن وزملائه المخضرمين، فهم أدرى بما يريحهم في الملعب من خطط، ولهم وحدهم بالاتفاق مع المدير الفني أو حتى بعدم الاتفاق معه حق اتباع الخطة التي يرونها مناسبة.

بالطبع أثبتت التجارب الماضية أن أكثر الخطط التي يرتاح إليها

كباتننا فلا يغيرونها أبدًا وذلك لملاءمتها لفرقنا ومناسبتها لطبائعنا وانطلاقها من تراثنا وتقاليدنا هي الخطة الدفاعية التي ترفع شعار «الدفاع خير وسيلة للهجوم» وهي خطة نتفرد بها بين الأمم قاطبة وتثبت أن لنا خصوصيتنا وتميزنا، وأننا لسنا مجبرين على التقليد الأعمى لكل بلاد الدنيا في خططها فأهل مكة أدرى بشعابها وأهل الهوى يا ليل فاتوا مضاجعهم وأهلك يا تهلك ده إنت بالناس تكون، وأهلي أهلي بيب بيب، لذلك وتطبيقًا لكل الحِكَم الآنفة علينا أن نلتف كجماهير صفًّا واحدًا خلف أبو الكباتن ونتضامن معه بكل ما أوتينا من قوة وهو يضع خط الدفاع تلو خط الدفاع، ويقف كسيحًا عاجزًا خائفًا متوجسًا من اتخاذ أي مبادرة هجومية أو التحرك من منطقته الحصينة التي يحرس فيها مرماه، لا تلمه لو فعل ذلك فهو يطبق حكم الأجداد التي تنصحه بأن يعدي سنة ولا يخطي قناة، واجري يا كابتن جري الوحوش غير رزقك لن تحوش، والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين، وعلى حسب الريح ما يودي الريح ما يودي، والعروسة للعريس والجري للمتاعيس، لذلك عليك أن تشجع كابتن فريقك وهو يقف مضيعًا الفرصة السانحة تلو الأخرى من أجل تحقيق أي تقدم أو فتح اللعب أو تسجيل انتصار مبكر، مكتفيًا بتوجيه فريقه بالضغط على الخصم وعرقلته بدون استفزاز الحكم أو لفت أنظار حاملي الراية ومراقبي المباراة ويا سلام لو تم إسقاط الخصم على أرض الملعب لمس أكتاف شريطة أن تكون هذه الأكتاف قانونية في المباريات المذاعة على الهواء، أما عندما لا تكون المباريات مذاعة وتجري في غيبة عن عين الرقيب فلا يشترط في الأكتاف أن تكون قانونية بقدر ما يشترط أن تكون قادرة

على شل حركة الخصم وتطويقه وإسقاطه أرضًا وكسر ضلوعه ومحاصرته في نصف الملعب بحيث لا يستطيع أن يخرج منه ولا يتمكن من إحراز أي هدف، ويظل يلف ويدور حول نفسه يكرر جمله التكتيكية، ويحاور نفسه ويمرر تمريرات عقيمة لزملائه لا يتم استثمارها بأي شكل، ويتم إحباط مفعول ما يمكن أن يثمر منها بالقيام بمحاولات تكتيكية يقوم بها الكباتن المدربون على إجهاض أي هجمة قبل أن تتطور، وتشتيت أي ضربة ثابتة، وقطع أي تمريرة عرضية، وإخراج أي كرة إلى خارج الملعب لتهدئة اللعب، ولا مانع من استخدام المهارات التمثيلية اللازمة لادعاء الإصابة والتقلب بألم زائف على أرضية الملعب لكي نشعل المدرجات ونستدر عطف الجماهير وغضبها على من يحاول أن يلعب ضدنا لعبًا شرسًا فعالًا أو ذا جدوى.

هذه يا سيدي بعض التكتيكات الغتيتة التي يمارسها كباتن بلادنا ضد منافسيهم في اللعب الذين يظنون خطأً وهطلًا أن بإمكانهم ممارسة اللعب النظيف والجاد في بلاد أهلها ليسوا جادين حتى في عبور الطريق. أسمع الآن صوتًا يقول لي يا أخي بتقفلها ليه، أليس من الممكن أن يرزق هؤلاء الكباتن بلاعبين منافسين تمكنهم مهاراتهم الفردية من الإفلات من كل التكتيكات الغتيتة الرزلة، والحقيقة أن ذلك وارد فعلًا، لكنه لم يغب أبدًا عن حسبان كباتن بلادنا الذين إذا اكتشفوا أن اللعب داخل الملعب لن يكون في صالحهم تجدهم ببساطة شديدة ينتقلون فورًا إلى اللعب خارج الملعب لضمان السيطرة على الماتش.

سأقول لك كيف.. هم مثلًا لا مانع أبدًا لديهم من تسليط

فريق مجهول ومدرب من الجماهير لكي يشتم الذين خلفوا الفريق المنافس ويستفز أعصاب لاعبيه ويطلق عليهم الشائعات والتشنيعات والشتائم والقباحات، بالإضافة إلى فريق أكثر تدريبًا وأشد مهارة يكون مستعدًا بما صغر حجمه وثقل وزنه من الطوب الجاهز للخروج عند اللزوم لإصابة أي لاعب يشكل خطورة على فريقهم في أم رأسه ليُقذف به خارج الملاعب غارقًا في دمائه، بعد الإعلان عن تحقيق عادل وشامل للبحث عن الذي قذف تلك الطوبة وأساء إلى سمعة جماهيرنا المتحضرة وشوه صورة فريقنا الزاهية، أما إذا كانت الرقابة الدولية مشددة على المدرجات وكانت الأوضاع الكروية لا تسمح لنا بأن نتبع إستراتيجية الطوبة لكي نقضي على من نراه خطرًا علينا من لاعبي الفريق الخصم، فلا مانع من تسليط الصحافة الموالية لفريق كباتننا لكي تنبش في سيرته وتنهش في لحمه وتجعل الذي يشتري يتفرج عليه، وبذلك تتكاتف كل الظروف عليه داخل وخارج الملعب فلا يلعب ببصلة ويكره اللعب واللعبة بل ويلعن اليوم الذي قرر فيه أن يلعب ضد فريق كباتننا ويتمنى أن تنطلق صافرة الحكم لكي يخلص من الهم الثقيل الذي رزئ به.

ستقول لي إن هذه خطة تفتقر إلى أي خيال وتفتقد إلى أي شرف، طيب قل لي يا خفيف بماذا سينفعنا الخيال وبماذا سيفيدنا الشرف لو أمر كابتن الفريق فريقه بأن يتركوا تحصيناتهم الدفاعية المنيعة ويبادروا بالانتشار في الملعب ثم دخل في الفريق هدف مفاجئ وخسر المباراة؟ هل ستذكره عندها بالخير أم أنك ستلعن سنسفيله وستلومه على ما حدث له؟ ستقول لي إن الفريق يمكن أن يعوض ما يدخل

فيه من أهداف ويطبق سياسة الهجوم خير وسيلة للدفاع، ولكن لماذا يتعب نفسه ويضع نفسه في مخاطرة غير محسوبة لكي يرضي نزقك ورغبتك في عيش حياة مشوقة بها تغيير وتطور وصراع ودراما وحركة وتشويق ومتعة؟ من أنت حتى يعرض نفسه واستقراره للخطر ويرهق نفسه من أجلك، ما أنت إلا متفرج بائس عليك أن تلزم مكانك في صفوف المتفرجين، ونصيحتي لك لا تعش في الدور وتسوق فيها وتصدق أن لك تأثيرًا أو دورًا، كل ما عليك أن تكتفي باقتراح الخطة المناسبة وتسأل الله أن يرزقك العمر حتى تحضر اليوم الذي يقرر فيه الكابتن أن يغير خطته ويلعب بخطتك التي تراها أفضل وأمثل، أما إذا لم يفعل ذلك فلن يكون بوسعك أن تفعل شيئًا أكثر من الهتاف والصراخ الذي سنسمح لك به تجاوزًا، ولو تجاوزت فيه متخطيًا الخطوط الحمراء سنحجب صوتك لكي لا يذيع التلفزيون ما تتفوه به من بذاءات فتفسد علينا جمهور البيوت، ونتركك تصرخ حتى تتمزق أحبالك الصوتية معودين آذاننا على ألا تستمع إليك، كما سنسمح لك أن تُشهد الصحافة على ما تراه من تصرفات شاذة وخاطئة في الملعب، فنحن نعلم أن الصحافة أمر مهم للتنفيس عنك فلن نحرمك منه، لكن في كل الأحوال لن يكون لك مسموحًا بالنزول من مقاعد المتفرجين أو تخطي أسوار المدرجات للنزول إلى الملعب، لأن الموت سيكون حاضرًا بانتظارك، ولن يشفق عليك أحد فأنت في نظر الناس متفرج مارق خرج عن الدور المرسوم له وراح فطيس، وإذا أردت ألا تروح فطيسًا عليك يا حلو اللما أن تلتزم بدورك في اللعبة وتترك لغيرك أن يمارس دوره، وعندما تحل علينا وعليك وعلى الفرقة الهزيمة إياك أن تطالب بتغيير الكابتن أبو الكباتن أو تلومه على اختياره للخطة الخاطئة،

عليك أن تفعل ما تعودت دائمًا على فعله؛ أن تشتم الحكم وحسك عينك أن تجيب سيرة أبو الكباتن.

ستعيد لي وتزيد وتحدثني عما يحدث في بلاد الدنيا التي تغير كباتنها إن أخطأوا، سأعذرك بجهلك وأذكرك بتلك الحكمة الخالدة التي ارتبطت بواحدة من أشهر الأغاني المرشوقة في وجدان المصريين، أعني أغنية «كل بلاد الدنيا جميلة لكن أجمل من بلدي لا لا لا لا». وهي لمعلوماتك الأغنية الوحيدة التي تتكرر بها كلمة لا، ومع ذلك يسمح التلفزيون المصري الحكومي بإذاعتها، لكي لا يريكم الله تغييرًا في أبو كباتن لديكم.

الرفث إلى شعوبكم

يا مثبت العقل في الرأس يا رب. لا يمر عليك يوم رمضاني في أي رمضان يكتب الله لك أن تشهده ويعينك على صيامه، دون أن تقرأ في صفحة رمضانية سؤالًا أو طلب إحاطة عن حكم الرفث في نهار رمضان، أو تشاهد من يستفتي شيخًا فضائيًّا عن حكم القبلة في نهار رمضان، بل وربما سمعت مثلي فتوى إذاعية تجيب سائلًا عن حكم من جامع زوجته في نهار رمضان ناسيًا (إزاي ناسيًا ما تعرفش، وإذا كان هو قد نسي فكيف تنسى هي أيضًا، برضه ما تعرفش).

للمرة الألف في عمري القصير قرأت في الصفحة الدينية في صحيفة قومية موضوعًا أكل جزءًا لا بأس به من الصفحة يستطلع فيه قارئ عن حكم الإسلام في قُبلة الصائم لزوجته، لم أشغل بالي طويلًا بالتساؤل عن هذا القارئ الذي قطّعه الشوق لزوجته بحيث لم يعد «يستطيع» معها صبرًا، فقد لفت انتباهي أكثر رد الشيخ الأزهري الكريم الذي برغم أنه قال إن الرسول صلى الله عليه وسلم أباح القُبلة للصائم وإنه صلى الله عليه وسلم كان يباشر زوجته وهو صائم طبقًا للحديث الصحيح، وإن المحرم هو المعاشرة لا المباشرة، لكنه لم

يترك القارئ المشتاق لزوجته يهنأ كثيرًا بهذا الرأي فذكّره قبل أن يهرع لهري زوجته تقبيلًا قائلًا «القبلة حلال فقط لمن يملك القدرة على ضبط نفسه، وإنه إذا كان الأقدمون يجدون مشقة في ضبط أنفسهم فما بالك بنا نحن ضعاف الإيمان الذين لا نمتلك القدرة على ضبط أنفسنا؛ لذلك علينا أن نقفل الأبواب التي ينفذ منها الشيطان إلينا ونمتنع عن تقبيل زوجاتنا»، أقسم بالله أن هذا ما نشر بالنص، وهو فضلًا عن تأكيده على المصيبة التي نعيشها كمسلمين مع الكثير ممن يتخذون مواقع الإفتاء، يكشف أساسًا أن مولانا يمتلك مفهومًا قديمًا جدًّا عن القبلة، ربما كانت آخر مرة قَبَّل فيها زوجته عند نجاح ابنهما البكري في الجامعة، وإلا لكان قد سمح للقارئ المشتاق أن يبوس زوجته لكي يشجعها على سبك الأكل وطبخه بنفس حلوة، وألا يضيق عليه ما وسعه الله عز وجل.

في نفس اليوم شاهدت برنامج فتاوى شهير في إحدى القنوات الفضائية أعتقد أنه يصنف خطأً كبرنامج فتاوى بينما هو ليس سوى برنامج استشارات جنسية من الدرجة تريبل إكس، كان ثمانية من المتصلين قد سألوا عن حكم قُبلة الصائم وحكم جِماع الصائم وحكم مباشرة الصائم وحكم مداعبة الصائم، حتى شعرت أن المذيع والشيخ قد شعرا بالتقصير تجاه زوجتيهما من فرط ما تلقياه من أسئلة في هذا الموضوع، ما زاد وغطّى أن متصلة كريمة اتصلت وحياة غلاوتك لتقول إن خطيبها يلامسها وينزل منها سائل خفيف فهل ذلك يوجب الغسل، سألها الشيخ هل يحدث ذلك في نهار رمضان فانكسفت وأغلقت الخط، ليقول له المذيع «مش معقول ده بيحصل في نهار رمضان، أكيد بيحصل بعد الفطار»، بعدها داهمهما

اتصال من مشاهدة كريمة، يبدو أنها من كثرة ما سمعته من أسئلة تخص ما تحت الحزام نسيت أنها تتصل ببرنامج فتوى، حيث طفقت تسأل بصوت كان في حد ذاته يتنافى مع آداب الشهر الفضيل «من ساعة ما اتجوزت جوزي للأسف ما فيش أي علاقة زوجية تقريبًا»، تدخل المذيع النابه بسؤال مصيري «تلات سنين وما فيش دخول خالص.. معقولة؟»، هنأه الشيخ أنه خطف السؤال من على بقه، أجابت المتصلة «لا حصل دخول عند دكتورة.. ومن ساعتها بقى لنا تلات سنين ما فيش علاقة زوجية خالص.. أصله بياخد مخدرات وبودرة. في العلاقة بيبقى تعبان ولازم بياخد فياجرا.. وقفت جنبه ودخلته مستشفى وعالجته. ومع ذلك دائمًا تعبان ورافض يروح الدكتور»، لم يتركها المذيع تكمل ودون أن ينتظر رأي الشيخ قال لها إن من حقها أن تطلب الطلاق خوفًا على نفسها من الفتنة، لكنها صعَّبت عليه المسألة عندما قالت «بصراحة هو حنين قوي معايا.. وعشان كده أنا وقفت جنبه.. لكن أنا عايزه أخلف وعشان كده عملنا تحليل للسائل المنوي طلع بيخلف بس أنا عايزه أسأل مش اللي أنا فيه ده حرام لأني خايفه أضعف وعايزه أعرف رأي الشرع».

تلومني لأنني أتكلم معك كلامًا كهذا وأنت صائم، فما بالك لو سمعته مثلي على الهواء مباشرة وأنت صائم؟ لعلك عندها ستفعل مثلما فعله صديق لي اتصل بي بعد أن انتهت السائلة الخائفة من سؤالها ليسألني هل أمتلك رقم تليفون برنامج الفتاوى، فقلت له مداعبًا «إيه عندك مشكلة مماثلة؟»، قال لي «لا بس كنت عايز أسأل فضيلة الشيخ هل الاستماع إلى صوت السائلة الكريمة ينقض وضوء الصائم؟».

قبل أن تفكر الآن في حذف الكتاب من بين يديك والنهوض من فورك لكي تبعث لي رسالة غاضبة تلعنني وتكفرني أو على الأقل تفسقني، فأستحلفك بالله ألا تظن أنني رجل يكره أن يستفتي الناس شيوخهم عن الجنس وشئونه، أو أنني رجل متخلف ضيق الأفق يقف ضد الاستشارات الحميمة سواء كانت لشيخ أو لطبيب، أنا يا سيدي والله أؤمن أنه لا حياء في الدين ولا في العلم، ومشكلتي مع برامج الفتاوى التي باتت تنهمر علينا كسيل العَرِم من المحطات الفضائية هي مشكلة أبعد من تحت الحزام بكثير.

لا أزعم أنني أحطت علمًا بكل هاتيك البرامج، لكنني أزعم أنني ظللت لفترة طويلة متابعًا جيدًا لها حتى كدت أضِلُّ، وأزعم وأرجو أن أكون مخطئًا في زعمي أنني لم أشاهد ولو لمرة في أي من هذه البرامج مستفتيًا كريمًا أو حتى لئيمًا يسأل ولو على سبيل الغلط عن حكم الإسلام في التعذيب أو رأي الدين في إهانة كرامة الإنسان في قسم الشرطة، لم أسمع مواطنًا يسأل على الهواء مباشرة (حتى ولو قطعوا في وجهه الخط) عن رأي الشرع الحنيف في تزوير الانتخابات أو توريث السلطة أو تهريب الفاسدين خارج الأوطان أو مكافأة الفاسدين بتعيينهم رؤساء لشركات بترول أو نهب المال العام أو الكذب على الشعب أو التخلف الفكري والحضاري الذي يعمنا ويعمينا، للأمانة ربما كان السؤال الوحيد الذي سمعته يتعلق بهمٍّ عامٍّ يجري في أوطاننا كان حول كيف ينجو المسلم من خطر الافتتان بالشيعة؟ ونتع الشيخ يومها في رده خطبة عصماء جعلتني أشعر أن الفُرس على الأبواب.

للأسف كان المفروض أن يكون انتشار هذه البرامج الدينية في

كل المحطات؛ أرضيها وفضائيها ومليانها وفاضيها دليلًا على ارتفاع الحس الديني عند ملايين المشاهدين، لكنك عندما تتابعها تكتشف أنها أصبحت دليلًا على تفسخ العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وجهلهم بأبسط مبادئ دينهم الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق، فخلّص كثير من المنتسبين إليه على مكارم الأخلاق. المهم أنني كل مرة يثقلني الهم من مشاهدة تلك البرامج التي لا يسأل المصريون فيها إلا عن الطهارة والغسل والسوائل النازلة والطالعة، أحلف إنني لن أعود لمشاهدتها، لكن الطبع دائمًا يغلب التطبع، ذات مرة كتبت عن محاولة جريئة قمت بها للاتصال ببرنامج الاستشارات الجنسية الذي يتخفى في قناع برامج فتاوى والذي حدثتك عنه بالأمس، وحكيت كيف وفقت بعد عدة محاولات في الوصول إلى الكنترول، جاءني صوت مندوب البرنامج المختص باستقبال المكالمات والتنقية منها، وأنا أحاول تمالك مشاعر الفرحة سألني: حضرتك تحب إن شاء الله تسأل عن إيه؟ قلت له: الحقيقة أنا سمعت رأي الشيخ الفاضل في حكم الرفث إلى النساء، لكن حبيت أسأله إن شاء الله عن حكم رفث الحكام إلى الشعوب في نهار رمضان أو في ليله. جاءني صوته زاعقًا: قصدك إيه يا أخ لو سمحت؟ قلت له: يعني كنت أريد أن أسأل فضيلته أليس التوريث في نهار رمضان رفثًا إلى الشعوب، أليس الفساد ونهب المال العام والظلم والرشوة واسترخاص الإنسان الذي كرمه الله رفثًا إلى الشعوب؟ ثم أريد أن أسأل الشيخ الكريم هل إذا حدث تعذيب لمواطن في القسم ولم ينزل سوى دم خفيف من المواطن هل يصح صيام الضابط وأمناء الشرطة؟ بالطبع لم أتلق الجواب على أي من أسئلتي لأن رجل الكنترول الحيان قفل السكة

دون أن يفسد صيامه بشتيمتي. عندما أغلقت السماعة من طرفي، كان الشيخ في البرنامج إياه يشرح من طرفه لإحدى السائلين بحماس شديد الفرق بين المني والمذي والودي، في نفس الوقت الذي كان شريط الشات أسفله يستمطر اللعنات على أعداء الإسلام دون أن يفكر أحد من «المتشاتين» أن يذكر أنه لا يوجد عدو للإسلام أساء إليه مثل ما أسأنا إليه نحن الحاملين اسمه في خانات ديانتنا.

يومها سارعت بإغلاق التلفزيون وهرعت إلى إذاعة القرآن الكريم، ليشاء الله أن أجد في صوت الشيخ محمد رفعت رحمه الله بعض عزاء، كان يقرأ من آيات الله الكريمة قول الله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ»، هزّت الآية الكريمة أعماقي فدعوت الله أن يرحمنا برحمته، ويجعلنا من الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا واعترفوا بذنوبهم، عسى الله أن يتوب عليهم، ثم دعوت للإمام ابن حزم بالرحمة وقد تذكرت مقولته إن تلك الآية الكريمة تنطبق على كل من أراد أن يضل الناس عن سبيل الله عز وجل حتى لو استخدم في ذلك مصحفًا.

إسكندريتي!

لِكُلٍّ إسكندريته ولي إسكندريّتي. إسكندريتي كانت ولا زالت.. عامود السواري القريب من منزلنا، أهرب إليه مستلقيًا أسفله وأسبح معه في السماء، منصتًا إلى صمت القبور المهيب الذي يقطعه بين الحين والآخر «صوات» مفتعل، تاركًا النشيج الصادق الصامت لأهله، في الأيام الرايقة أتسلى بمداهمة باحث عن الونونة يختلي بسيجارته في ركن قصيّ، أو بإفزاع طالبي المتعة في الحفر البعيدة عن أعين الحراس، ربما يصادفني نهارًا فتح المغارة المحفورة أسفل العمود، فأدخلها وحيدًا مستعيدًا حلم الطفولة بكنز الإسكندر الأكبر الذي سيفك زنقة العيلة، ثم بعد ذلك بسنين أدخلها مع من أهوى محاولًا أن أحفر تاريخًا يخصني، قبل أن يدهمني قاطع متعة غتيت ليعلمني أن الحياة سلف ودين.

إسكندريتي.. صخرة ستانلي التي ظلت تتحدى البحر قرونًا ثم قهرها المقاولون العرب وكوبريهم.. حائط ستانلي الأسمنتي الذي كان يستر نزوات العشاق الذين كانوا يرسلون لي السلامات المرحة عندما كنت أجلس منفردًا بكآبتي متفردًا بصبابتي متفردًا بعنائي، شاكٍ

إلى البحر اضطراب خواطري، مستمتعًا بإعادة فيلم الغروب ومحصيًا عدد القبلات التي تعلو طرقعتها بالقرب مني، وعندما لم أعد متفردًا بكآبتي وصبابتي وعنائي وأصبح لديّ من أحتاج إلى الإنفراد به خلف الحاجز الأسمنتي أزالوه وتركوا العشاق نهبًا لأعين العواذل.

إسكندريتي.. طبق الكشري بالكبده من عند «الصاروخ» خالي العدس ورد زيادة ومن غير شطة، يتلوه شوب الكوكتيل أبو جني مع الحرص على عدم تخلف أي آثار ناتجة عن الكشري على ما أقرؤه من كتاب كي لا يكتشف أهل الدار أنني لا زلت أفضل الرمرمة على الأكل البيتي. إسكندريتي.. سيمفونية الصخب الفريدة في ميدان المحطة الذي لم يقتنع أحد بأنه ميدان الشهداء، «غُنا» شفيقة وعزت عوض الله وصباح الغريب وحفني أحمد حسن المتدفق من فرشات الكاسيت ليتعشّق في نداءات باعة الفاكهة المرصوصة بعناية ترد الروح، وقرقعة المعالق على الصواني مع ملء كل طبق كشري، وأجراس الترام الأفعواني الذي يطلع من كل فج، ونداءات صبيان المشاريع الذاهبة إلى العشوائيات، وأصوات طلقات الرصاص المنبعثة من تلفزيونات المقاهي التي تحولت إلى سينمات يستطيع الغلابة إليها سبيلًا.

إسكندريتي..غيط العنب مهرب ساعات النكد أيام الطفولة، اللعب في القطارات القديمة بجوار الملاحات التي ردمتها الخطط الخمسية. الشوارع المتدارية التي كانت جدعة معي فاتجدعنت معها وطلّعتها في السيما. جارتنا الراقصة التي كانت أول من أدخلت الموبايل إلى الحتة فعلقته على مسمار في البلكونة «عشان كل واحد يعرف مقامه».. مشوار شراء اللبن من زين العابدين والشعبطة على

سلم الترام هربًا من الكمساري لتوفير ثمن سندوتش فول أغرقته الطحينة.. طعمية أبو أحمد الأكتع التي (واقطع ذراعي) أكلها سيد درويش قبل أن يغني أنا هويت وانتهيت.. الفرحة بزيارة أم الخلول وصواني البربوني البيتي قبل دخول عصر أسماك أبو أشرف الذي أحببناه قبل أن نراه. كبدة العربي التي تذوب في البق. هريسة الحلبي الأقرب إلى البروتين منها إلى الحلو. چيلاتي عزة أعزه الله. أكشاك الجرايد في محطة الرمل وكتبها العصية على السرقة. جدي الذي أفتخر بحمل صورة من بطاقته: المهنة فراش بسينما لاچيتيه بالإبراهيمية، وجدتي نرجس الجدعة التي لم أفهم فخرها الدائم بضهرها الذي اتحنى على ماكينة الخياطة وعندما فهمته وأحببتها بجد ماتت، عشة الفراخ التي ظلت تقاسمنا براح البلكونة قبل زمن أنفلونزا الطيور، والتماثيل التي لا زالت صامدة على واجهة عمارة الدكتور صمويل إسكندر، والسوق الكبير الذي كانت زحمته متعة أيام المراهقة، والفلاحات بياعات القريش التي قيل إنهن «ما بيختشوش» واتضح أنهن يختشين أحيانًا، حصير جامع سلطان المطبوع على الجباه الواقفة في انتظار عصير القصب بعد صلاة الجمعة، وحروب الدمنة المولعة في قهوة الاتحاد السكندري، صلاة العيد في الاستاد قبل أن يمنعوها لدواع أمنية، وماتش الأهلي الذي ينسيك محبتك للإتحاد وحيادك مع الأوليمبي، سكينة جامع البوصيري وبهجة مولد أبو العباس وغموض جامع أبو الدردار، قهاوي بحري التي ياما دارت النديم ودادت بيرم، التلصص على العشاق في المنتزه بحقد ثم بعد سنين التلصص عليهم بفرحة، مشوار شراء الجزم مع أمي من مصانع جلود الدخيلة على أساس إنها عمولة وتعيش كتير ودائمًا لا تعيش

ودائمًا نذهب من جديد، ذكريات العوم أمام شيراتون المنتزه قبل أن يصبح شاطئه «برايفت»، العوم الرخيص في مياه الأنفوشي التي جابت لنا المرض، ولوكاندة طلعت بالأزاريطة التي كانت مأوى التزويغ من البيت، وشرفة قلعة قايتباي حيث تجلس منك لربنا.. وأيام زمان التي كلما حلت علينا ذكرياتها هتفنا من القلوب: يا سلام على أيام زمان، الله لا يعودها.

المشكلة في الهيد!

فجأة انهار جهاز الفيديو الذي أمتلكه منذ عشرة أعوام بعد أن دوِّبت عليه أكثر من خمسة عشر نادي فيديو في مناطق متفرقة من القاهرة الكبرى وضواحيها وفروق التوقيت وبعد أن شاهدت عليه عددًا مهولًا من أشرطة الفيديو دفعت عنها لأندية الفيديو غرامات تأخير قيمتها أكثر مما أنفق أهلي على تربيتي، رحل صديقي الوفي وأنيس وحدتي بعد أن تعرض لإهانات مني لم يتعرض لمثلها مواطن في لجنة شرطة، يكفي أنه كان يعمل في أيام البطالة لأكثر من ١٦ ساعة في اليوم دون توقف، ويا ليته كان له الحق في أن يختار ما يقوم بتشغيله، بالعكس فقد أجبرت الجهاز المسكين وهو من ماركة شارب على أن يشرب أحط الأفلام التي توصل إليها خيال الإنسان المريض، يكفي أنني شاهدت عليه الأعمال الكاملة لستيڤن سيجال وچان كلود (ڤان دام) وسنتيا روزروك وميشون شيكربورتي ويوسف منصور، كل ذلك لأنني قرأت أن السينمائي الأمريكي الجميل كوينتين تارانتينو كان مدمنًا لمشاهدة الأفلام الرديئة وأنه كان يستمتع بها للغاية كمصدر إلهام، وكانت النتيجة أنني لم أصبح مثل تارانتينو ولم يتحمل جهاز الفيديو كل ذلك العناء.

أسمع منكم من يقول: طيب كيف تدعي أنه انهار فجأة بينما تعترف بكل هذه المرمطة التي تعرض لها في خدمتك، ولهذا الذكي أقول إنني كأي مواطن مصري صالح لا بد أن يصف أي وكسة يتعرض لها بأنها حصلت له فجأة حتى لو كانت علاماتها تتعاظم أمام عينيه يومًا بعد يوم، تغرق المياه أساس العمارة على مدى سنوات دون أن يتحرك أحد لوقف ذلك وعندما تنهار العمارة يولول الجميع لأنها سقطت فجأة، يعطي عبد الناصر الجيش لعبد الحكيم عامر لكي يرتع فيه هو ورجاله ثم يولول الجميع لأن الهزيمة حصلت فجأة، يخاصم السادات شعبه ويطيح فيه تطبيع واعتقالات وفساد ثم يستغرب الجميع كيف تم قتله فجأة، تسود الطرمخة في الأماكن السياحية بعد أن ينشغل الضباط بلم الغلة ومراعاة السبوبة ويولول الجميع لأن الحادث الإرهابي وقع فجأة، والأمثلة أكثر من أن تحصى، إذن لماذا تستكثرون على العبد لله أن يقول إن «جهاز فيديوهه» انهار فجأة؟ نعم أعرف أن علامات الوش والتشوش في الرؤية ظهرت منذ سنين وأخذت تزيد شيئًا فشيئًا، لكنني بعون الله لم أقف مكتوف الأيدي بل قمت بذلك الحل المصري العبقري المتمثل في فكّ الجهاز بالجهود الذاتية وتلطيخ قطنة ببعض من كولونيا الخمس خمسات ومسح الهيدّ بها لتسودّ القطنة، ثم تركيب الجهاز وإدّيها فرجة حتى يعود الوشّ ثانية وتزيد الشوشرة، ولا مانع في حالة غياب القطنة من استخدام منديل كلينكس أو ورق بفرة أو حتى ورقة زبدة، المهم أن تخلص المشكلة دون أن تتشال وتتحط وتذهب لأخصائي تصليح الأجهزة الذي نعلم جميعًا في المنطقة أنه أساسًا هجّام وأن فتحه للمحل جاء استمرارًا لعشقه لسرقة الأجهزة الكهربائية دفع بسببها

من عمره سنوات في السجن قرر بعدها أن يتواصل مع الأجهزة الكهربائية كمدمر لا كحرامي، تذهب إليه بالجهاز فيقوم بالتحسيس عليه من الخارج وكأنه سيشقه بسكينة ثم يقوم برفعه رفعة نطر ناظرًا إلى أسفله الذي ليس له أي أهمية ثم يقول لك بثقة «تعال الخميس استلمه»، دائمًا يقول لك أن تأتي الخميس سواء ذهبت إليه يوم السبت أو الأربعاء، حتى لو أتيت الخميس سيطلب منك أن تأتي الخميس، وعندما ستأتي الخميس سيطلب منك أن تأتي الخميس الجاي ببائع روبابيكيا ليشتري الجهاز لأنه لم يعد يصلح للاستخدام.

لا أبرر بواقعة مثل هذه قيامي بالتعامل مع جهاز «فيديوهي» بنفسي فلدي بدل الواقعة عشرين واقعة كلها تثبت أن ذلك كان الحل الوحيد لكي تمضي الحياة بعد أن أصبحت أنفق على إصلاح الفيديو بسبب كوارث مُصلحي الفيديو أكثر مما أنفقته على شراء الجهاز «أشاسًا». وعندما خذلني الفيديو في الأسبوع الماضي وأصبح غير «شارب» بالمرة، قمت بعملية قطنة المستقبل لمسح الهيد لكن القطنة كذبت عليّ وخرجت بيضاء من غير سوء، وظل الجهاز يخروش ويوشّ ويعرض صورة لا يفوقها في الرداءة إلا صورة مصر في الخارج، لذلك اضطررت أن أبدأ التنقيب عن مُصلح أجهزة كهربائية لم يسبق له دخول السجن، وما إن دلني أولاد الحلال على محل مهندس شاطر في شارع خلفي من شوارع وسط البلد حيث يعمل في صمت بعيدًا عن الضرائب حتى هرعت إليه بجهازي وداخلني الاطمئنان عندما لم يقم بالتحسيس على الجهاز بل قام بفكه باحتراف، وزغر لي عندما قلت له آجي إمتى أستلمه؟ بل شخط فيَّ وقال مش لما أشوف ما له الأول، تحولت الزغرة إلى نظرة كراهية عندما فتح

الجهاز ورأى ما به من قاذورات حاولت أن أقول له إنها قاذورات فكرية مصدرها الأفلام التي أشاهدها لكنه لم يصدقني، وبعد أن قام بالتأمل في الجهاز بدقة وفحص أجزاءه قال لي بصوت يليق بطبيب جراح «المشكلة في الهيد.. لازم تغيره»، سقط من نظري لأنه قال لي معلومة بديهية يعرفها أي طفل في بيتهم فيديو، قلت له «ما أنا عارف إن المشكلة في الهيدّ أصل أنا حاولت أمسحه كتير ما عرفتش وعشان كده أنا جايبهولك تمسحه»، نظر إليّ بقرف وقال لي «يا أفندي لا عاد ينفع مسح ولا تلميع.. الهيدّ باظ ولازم تغير الهيدّ»، في تلك اللحظة التاريخية التي كان الباشمهندس يضع يده مخرجًا الدودة من أصل شجرة الفيديو، كان التلفزيون الموجود في محله يعيد إذاعة خطاب تاريخي للرئيس مبارك إذا صح أن الرئيس له خطاب ليس تاريخيًا، على عكس كلمات الرئيس الناضحة بالتفاؤل والأمل في قلب المحل، جاءت كلمات الباشمهندس القرفان ناضحة بالبؤس والتشاؤم «يا أفندي لا عاد ينفع مسح ولا تلميع.. الهيدّ باظ ولازم تغيّر الهيدّ»، ظن الرجل بي سوءًا عندما هجمت عليه أحتضنه وأقبله بحب كأنه جاب لي التائهة، أمسك المفك بتحفز زال قليلًا عندما وجدني أغادر المحل دون أن أهتم بأخذ الفيديو معي، قال لي «إيه يا أستاذ مش هتصلحه»، قلت له «لا.. أصل كفاية عليه عشر سنين.. خليهولك.. أنا هاشتري فيديو جديد بهيد جديد».

غادرت المحل وأنا متشبع بيقين كاد يدفعني للصراخ في الناس بأن المشكلة في الهيدّ وأنه لا عاد ينفع لا مسح ولا تلميع لأننا لازم نغيّر الهيدّ، لكنني تذكرت أنني قريب من وزارة الداخلية، وأن الموقف قد يتطور لأتعرض حينها لمسح «هيدّي» بالقطنة التي لا

تكذب، ولذلك فضلت أن أسارع بشراء فيديو جديد وكتابة هذا المقال لأبرئ ذمتي لدى الله قائلًا إنني قلت لعباده المصريين ذات يوم إن المشكلة في الهيدّ وإن عليهم أن يدركوا ذلك قبل أن ينهار البلد.. فجأة.. لا سمح الله.

الفهرس

ضحك مجروح

ليست فروسية والنبي، أنا لن أحمل أحدًا مسئولية ما أصبحت عليه. أنا أستحق ما جرى لأسناني، أنا وأسناني نبت للثقافات الفاسدة التي تسود حياتنا، ثقافة العلاج بالمسكنات، ثقافة البحث عن الحل بعد وقوع الكارثة، ثقافة الطناش والإهمال والطلسقة والترقيع، ثقافة عدم الجدية والسخرية من الذين يفعلون أي شيء بجدية حتى لو كان غسيل أسنانهم بالفرشاة كل يوم، ثقافة الحشو المؤقت حتى يسقط فنستبدله بحشو مؤقت آخر، ثقافة هو إحنا فاضيين للكلام ده أيًا كانت خطورة الكلام ده، ثقافة الهروب من تحمل المسئولية طالما كان بالإمكان الشكوى من الزمان والظروف والنصيب، لذلك لا تشفقوا عليَّ، فأنا لا أشفق على نفسي، أنا أستحق هذه الأسنان الخربة، وهي يا عيني لا تستحقني أيًا كانت نسبة الكالسيوم في موانيها المتصدعة.

عارف؟ من ييجي خمسة عشر عامًا كنت أقول لأصدقائي الحالمين بأن يصحوا من النوم على وجه حاكم أفضل، أو وجه حاكم آخر والسلام، «لن يسقط نظام مبارك إلا بعد أن تسقط أسناني»، وهذي أسناني قد سقطت، فاللهم لا اعتراض على حكمتك في توزيع الكالسيوم.

الغلاف: وليد طاهر

دار الشروق
www.shorouk.com